THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

Cat (FL)

سلسلة الكتب الحديثة
٢٢

وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

عبد الوهاب الأمين

مع الكتب وعليها

المكتبة المركزية
لجامعة بغداد

مع الكتب .. وعليها

وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

سلسلة الكتب الحديثة
٢٢

مع الكتب وعليها

تأليف

عبد الوهاب الأمين

دار الجمهورية ـ بغداد
١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨ م

956
Ir 27
22

المقدمة

خير ما قيل في تقييم المرء لآثاره انه يراها كما يرى الوالد ذريته . فالعطف والرضى أصل ، والنقد معه التبرير والعزل . وقد يحظى الضعيف من تلك الذرية بأكثر الأنصبة قياساً لأنه الأضعف ، وقد تكون مع التبرير لازمة عند النقد تأتي معها بشيء من العناد الذي لا يعجز عن خلق المسوغات الذكية .

وقد تفاديت كل ذلك عند ما عزمت على تقديم هذه المجموعة للنشر ، لأني اتخذت القرار الأول والأخير ، وهو استخلاصها من الزوايا لكي تكون في المرايا .. ولم أعن بالمبررات .

وقد تركت مهمة النقد للناقد ولم أقم بأكثر من دور الوسيط

مع القارىء . وكنت بذلك كمن يتعرى أمام الطبيب لكى يفحصه ، وقد تكون النتيجة أن يربت الطبيب على كتفه لكى يقول له : قم ! لا بأس عليك . فان كان ذلك فبها ونعمت ، وإن كانت هناك علة من العلل فما أسهل العلاج والدواء !

وفي بلد كالعراق في هذا الدور ، وفي زمن قل فيه الاسهام الأدبي ، لا يجد المرء بأساً بأن يقذف بمثل هذه المجموعة من المقالات الأدبية والنقدية والاجتماعية الى قارىء هذا الزمان من كاتب الثلاثينات فما فوق . فما زال هناك كثيرون - وأنا منهم - يعتدون بتلك الفئة التي كانت تخاطب القارىء مخاطبة صريحة بأقلام صريحة ولغة صريحة صحيحة في ذلك الزمان ، ويفضلونها على كتاب اليوم الذين يلجأون الى الجمجمة والهمهمة تقليداً ، وينطقون العربية مجروحة ويكتبونها مقطعة الأوصال لاهثة النفس ، لا تمر من المطعبة حتى تقع في قعر الفناء والعدم .

أقول لا بأس بأن تمر هذه المجموعة في الخضم الصغير - إذا استقام مثل هذا التعبير - الذي نشهده أمامنا في عالم الفكر . وقد يكون من بواعث السرور الشديد لدي أن تكون موضع النقد ، بل التجريح إذا شاء المجرحون ، فانها - بعد أن سلخت هذه المسيرة من العمر مهملة - لا يؤودها أن تلقى أي جزاء تستحقه وهي في أول مراحل الوجود بعد اليوم .

***

تضم هذه المجموعة مقالات بعضها يصل الى الثلاثينات ، كما قلت ، وبعضها كتب في عامنا هذا (١٩٦٧) . واذا كان لها - أي

المجموعة - أي امتياز فهو أنها لا ضابط بينها ولا رابط . فهي أشبه بنزهة فكرية يقضيها القارىء مع الكاتب على نية الثرثرة . فأنا من اولئك الذين يضيقون ذرعاً بتعاليم الكتاب ، لأني أعتقد أن القراء قد بلغوا رشدهم أولاً ، فهم أحرى بأن يعرفوا ما يريدون ، وأن من العبث أن تستجدي رضاهم اذا كنت لا تملك السيطرة عليهم . ولن تكون تلك السيطرة عن طريق المقال قط ، لأن القارىء لا يصفق لكاتب المقال إلا اذا أعجبه كيف ينطق بلسانه هو . وان التصفيق والاعجاب يأتيان كرهاً لا طوعاً للأديب الخلاق الذي يستطيع بفنه العالي أن يأسر القارىء عن طريق القصة أو الرواية أو المسرحية ، على ابتعادي عن هذه الأخيرة .

ثم إني أرى ثانياً أنه لم تعد هناك جدوى في أن يكتب الانسان لغرض ما نسميه بتعابير اليوم (الدعاية) فقد أصبح هذا التعبير يشكو البؤس من كثرة ما اختلط به من تهمة الكذب والعجز والسوقية . والحق أن الحرب الأخيرة قد أيقظت الكثير من الحساسية الفنية والارتفاع الذهني بوجه عام ، بحيث لم يعد هناك مثل ذلك المجال الواسع لكاتب أو فنان أن يستحوذ على القارىء باشارة من قلمه كما كان الأمر عليه في الماضي ، بل وحتى الحرب الكونية الأولى ، حين استطاع بعض الكتاب أو الخطباء أن يستفيدوا من فصاحتهم حربياً .

وعلى هذا فلم يجد لكاتب المقال اليوم سوى أن يتعزى قليلاً بقراء الزمن الغابر . وآخر مجموعة من المقالات المختارة قرأته ، لم يكن يحوي سوى مجموعة خواطر كتبها همجواي أيام كان بباريس

وهي هواجس أدبيـــة أقرب الى اللغـو المحبب منـــه الى الدراسات الناضجة .

***

ومن بين المقالات المنشورة في هذه المجموعة قبضة (خواطر) صغيرة نشرتها في (الجمهورية) البغدادية في أوقات متفاوتة . وكانت تلك عادة لي أعقب فيها على بعض النواحي الأدبية والفكرية. وهي في الواقع كثيرة - من حيث الكم - ولكنها ذات سياق واحـد من حيث الكيف . وقـد انتقيت من هـــذه الخواطر بعضاً مما رأيت له صفة الدوام الفكري المتعلقة بخط أدبي واضح ، وتركت تلك التي تتعلق بالأحـــداث والحوادث ، لأني وجدت أن مثيلاتها من تلك المقطعات الصغيرة تغني عنها .

وطويت بعض المقالات النقدية ، لأني أعدت النظر في جانب منها فلم أجد ما يدعو الى إلتزام الشدة في القول ، لأن الكلام الرخاء يغنى عنه . ولما رأيت أنها كانت مبعث انفعال وقتي لا أراه اليوم يغني في فوراته وإن كان قد أغنى في هيجانه يوم أن نشـــر لأول مرة . ولم آسف على ذلك لأن الذين كنت شديداً عليهم لا يرضيهم اليوم مبعث تلك الشدة من قبرها ، ولا يرضيني أنا أن أعود الى سلك كهرباء فقد شحنته .

وقد حاولت أن تكون المقالات حسب زمنها ، ولكني فضلت في الأخير أن تكون حسب مواضيعها ، وإن كنت قد التزمت الناحية الكرونولوجية جزئياً في ذلك .

ويعنيني كثيراً أن أنبه على الجانب الشخصي من بعض هذه

المقالات ، ففيها حديث عن كثيرين طواهم الزمن ، ومن الواجب إحياء ذكراهم ، كما كان الحال في المرحوم (الثعالبي) مثلاً ، حيث اقتبست جريدة (البلاغ) المصرية وقتذاك تلك الصورة التي نشرتها عنه في (الوميض) الموءودة في اليم .. وقد طلبت روحها الرحمة الآن !

***

وقد يقول قائل : « ولماذا لا تكون المقالات منسقة بصورة متسلسلة على المواضيع فيكسب القارىء منها خلاصة ما وصل اليه الكاتب من دراساته ؟ »

وجوابي على ذلك أن الأحرى بمثل هذه المقالات أن تكتب أصلاً لكى يضمها كتاب واحد في موضوع واحد . والمثل الأعلى لهذه الكتب هو تلك الأطروحات التي يتقدم بها ذوو الشهادات العلمية . وقد أصبح لدينا منها - والحمد لله - شيء كثير ، وإن كان أغلبها لا يزال يطويه الاهمال ، وهو إهمالان في الواقع ؛ أحدهما إهمال من قبيل العمد ، والثاني من قبيل الاغفال . وعسى أن يلفت ذلك نظر المسؤولين فيتخذوا ما يرونه مناسباً لبعث هذا الكنز الدفين الى الوجود .

أما المقالات التي تحويها دفة هذا الكتاب فهي من قبيل (التأملات) الفكرية التي تعطي صورة عن كاتبها وعن زمنه ، فتصبح بذلك أشبه بالسجل الأدبي للحياة الفكرية والأدبية ، يمكن أن تصبح في يوم من الأيام مرجعاً - بشكل من الأشكال - يركن إليه عند ما يحين وقت تاريخ تلك الحقبة تاريخاً أدبياً .

ولست أدعي شيئاً في تقديم هـــذه المقالات الى القارىء سوى أنها نمط واحد من تفكير يجدر عرضه اليوم ونحن نتهيأ لعهد جديد في عالم الأدب والحياة .

١٩٦٧/١١/١ عبدالوهاب الأمين

مع الكتب .. وعليها

لابد للانسان في هذا العصر أن يقرأ . ولابد أن يقرأ الكثير .

وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا من البديهيات ، ولكنه ليس كذلك . فقد يقول قائل إن هناك حداً معيناً ينبغي أن يقف عنده الانسان القارىء فلا يتعداه . وقد يقول سواه إن الواجب يقتضي القراءة ، ولكن ليس من اللازم أن يقرأ الانسان الكتب . ففي وسعه أن يمتد في آفاق التفكير كيفما شاء عن طريق الصحافة أو الراديو أو الثقافة العامة بالاستماع الى المحاضرات والمساجلات الفكرية أينما كانت .

وعلتي كما يقول الكاتب المبدع (سومرست موم) إني لا أعيش من غير أن اقرأ (الكتب) ولا يغنيني ما اصطلحت عليه لحاجة هذا الزمان الذي يعبد السرعة وينحر الفن في سبيلها ، فيرضى أن يقرأ الدرة الأدبية مشوهة عن طريق التلخيص أو التضمين أو التحرير أو غير ذلك من المسميات .

ولابد لي أن أستطرد قليلاً . فالاستطراد هنا ضروري ومفيد .

فقد درجت دور نشر كثيرة على القيام بهذه الجريمة الأدبية وهي تتبجح بأنها تحترم الثقافة والعلم والأدب في عملها الأخرق هذا .

وهي إنما تخدم أغراضها لنفسها وتهدف الى الاستفادة والمرابحة على حساب الأدب والثقافة .

فأنت ترى — مثلاً — قطعة فنية لأديب كبير ، كستيفان زفايج ، ممسوخة الى حد سدسها ومشوهة حتى في عنوانها ، منشورة في هذه السلسلة من المطبوعات أو تلك ، وفي صدرها كلمة تفيد أن المشرفين على العمل قد تلطفوا على القراء لنقل هذه القطعة الأدبية ، في حين انهم اعتدوا على قدسها ومسخوا عمودها الفقري في سبيل المال .. فأحالوها من درة أدبية الى الدرجة الثانية من المطبوعات .

ولم يأنف من هذا العمل أكبر دور النشر في البلاد العربية ، بل أصروا عليه إصراراً عجيباً .

وفي رأيي أن القارىء العربي خير له أن لا يقرأ أي كتاب من المخلدات ، من أن يقرأه مجزءاً ومشوهاً ومنقوصاً ومسروقاً منه خير لبابه .

فالكتب المخلدة لم تعد تركة قابلة للتصرف من جانب أبناء هذا الجيل ، لأنها كل قائم بذاته ، متميز بفضل لا يحق لأحد أن يجتهد في التصرف فيه مهما بلغ من منزلة ذلك المجتهد . وقد يحدث في كثير من الأحيان أن الاجتهاد ينتهي الى حذف خير ما في تلك المخلدات ، في حين يظن المجتهدون أنهم يقومون بتحسين تلك التركة الفكرية الثمينة ، كما رأينا ذلك في مختصرات الأغاني وأمثالها ، حيث أصبحت تلك المختصرات و (التهذيبات) اضحوكة بالقياس الى الأصل بسبب تفاهتها بعد العبث بها على تلك الصورة .

ولعل علة قراءة الكتب من العلل الممدوحة . فان أقصى أضرارها

ـــ وهي كبوة النظر واعتلال الصحة ـــ تقابلها تلك السويعات واللحظات الرائعة التي يقضيها الذهن في سياحاته الفريدة .

ولا تعني (الكتب) عندي شيئاً معيناً يمكن تحديده بتعريف . فأنا اقرأ على الأقل ستة كتب مختلفة المواضيع في وقت واحد ، وأتنقل من قراءتها حتى أنتهي منها كلها ، ثم يأتي غيرها ستة ستة وهكذا .

ولست بسبيل الاعتذار عن هذا . فقد يكون عيباً أن يصير القارىء الحديث الى ما صرت اليه ، وقد يكون غير ذلك . ولكني أريد لهذا الكلام أن يكون مقدمة وجيزة للحديث عن الكتب التي اقرأها ، فتكون المشاركة بين قراءة التمتع وقراءة النقد ، وتكون المهمة أوسع واللذة أعمق .

وذلك أني أريد أن يعرف القارىء الكريم أني اقرأ كما تدور الطواحين .. وعلى هذه الشاكلة سيكون القصد من المطحونات في هذا الباب .. كيفما اتفق !

وما دمنا على العتبة ، فمن الضروري أن يعرف أحدنا الآخر معرفة جيدة .

فالغرض من تعريف الكتب ونقدها يختلف عما كان أجدادنا يسمونه بالتقريظ ، لأن الزمن يسير مع النقد ، أي مع الهجوم ، لامع الزلفى والخديعة ، أي المديح .

والمفروض أن المؤلف يريد النقد الخالص لأنه لابد أن يريد الارتفاع بانتاجه ، ولن يكون ذلك من غير هداية أو دلالة على الطريق .

ولذلك فلابد أن تكون هناك مرارة في النقد . الملح مر . ولا طعام من غيره .

غير أن هـــذا لا يقتضي أن يشـتد مرارة الملح فتطغى بقصد إثبات الوجود .

ولابد لحديث الأدب والنقـد أن يتطرق إلى (جغرافية) هـذا النقد وحدوده إذا صح هذا التعبير ـــ وأراه صحيحاً ـــ في تحديد مهمة النقد والناقد بلغة هذا العصر .

فمن الضروري أن تتعرف إلى أين تمتد حـدود دولة النقـد الفكرية من جهاتها الأربع ، وكم من الدول الفكرية قد اعترفت بهذه الدولة !

وهو حديث طويل أرجو أن أخوضه مع صديقي القارىء .

تحدي الأساليب

يشكو كل جيل من الأجيال الأدبية من نفسه ومن الجيل الذي سوف يليـه .

وفي أغلب الأحيان تكون هناك مدرستان ، إحداهما تؤله الجيل السابق وتنظر اليه بتقديس واحترام وعزم ثابت على تقليده ، والأخرى تحتقر ذلك الجيل وتثور عليه وعلى مخلفاته بحجة أو بأخرى .

وقد غلبت الصفة التي يسميهـا الكثيرون بالتجديد على المدرسة الثانية ، كما سميت المدرسة الأولى بالقديمة . وطال النقاش حول الجـديد والقديم في الأدب مسـافة زمنية استنفدت كـثيراً من الطاقات وانتهت ـــ من وجهة نظر الابداع ـــ الى لا شيء تقريباً .

فقد أصبح كثير من المجددين قدماء حسب هذا التقسيم ، كما (تجدد) كثير من القدماء أو على الأقل هكذا كان الأمر يبدو للقارىء العادي .

فكلنا يعرف ـــ مثلاً ـــ أن العقاد كان يتزعم حركة التجديد في الأدب العربي المعاصر في مطلع هذا القرن ، وان الرافعي كان يتزعم الدفاع عن القديم بحرارة تفوق الحد الطبيعي .

ثم امتد الزمن حتى رمي العقاد نفسه بالتخلف والجمود ، في الوقت الذي كان فيه الرافعي يكتب القصص وهي لون من الأدب الحديث لم يكن الرافعي يعترف به بله أن يؤمن بجدواه .

ثم برزت الشكوى من جديد عن القديم والجديد في الأدب ، وهي ترتدي ثوباً جديداً ، بل أثواباً متعددة . وكاد الأمر أن يلتوي فيصبح العقاد قديماً والرافعي مجدداً لولا أن أطراف الخصومة لم تقتصر عليهما ، بل دخلت فيها عناصر أخرى سميت بعناصر الشباب والشيوخ ، فأصبح القول القائل بأن مدرسة الشيوخ هي مدرسة القديم ، وان مدرسة الشباب هي مدرسة التجديد ، هو المعول عليه بين صنوف النقاد والكتاب والأدباء .

في غضون كل هذا كانت الفلسفات الأدبية — وفي مقدمتها الفلسفة الوجودية — تكافح في سبيل البقاء بين الحربين الكونيتين ، وانقسمت — كما هو شأن الآراء الحية — الى مدارس متعددة ، وكابدت هي الأخرى عقدة القديم والجديد ، وكادت أن تصبح صورة مطابقة لما مر في أدبنا العربي المعاصر .

واليوم تذوب المعركة بأطرافها المتعددة — كما كان المتوقع — وتقف مشدوهة أمام تطور الأساليب الأدبية ، واذا شئنا الدقة في التعبير ، أمام تغيرها .

لقد أصبحت الأساليب الأدبية كبدلة القتال عند الجنود ... فأنت تراها وترى معها صفة المعركة والطرف المقاتل وما ينطوي عليه ، ولم يعد الأديب كما كان الأمر في الماضي يختفي طويلاً وراء أسلوب معمم ، كأسلوب المقامات مثلاً ، لكي يقول رأيه همساً ، أو يشير اليه إشارة عابرة قد تقتصر

على التلويح فقط ، بل أصبح الأسلوب قنبلة يدوية يرميها الأديب المقاتل في ساحة الأدب القتالية الواسعة الأطراف وينتظر وراءها رد الفعل وكله تحفز لاعادة الكرة اذا لزم الأمر .

وهذا في نظري أحد الأسباب التي آلت الى خفوت صوت الشعر ، هذا الخفوت الذي نلمسه في أعقاب الحرب الأخيرة ، فان انتاج الشعر لا يكاد يذكر ، وليس في وسع الشاعر أن يكون شاعراً ومقاتلاً في وقت واحد بسهولة .. كما لم يعد الوقت ملائماً لكي ينوح الشاعر بين مقاتلين لا صبر لهم على نواحه أو خلجات فكره المحلقة .

واذا نظرنا نظرة شاملة الى تطور الأساليب أو تغيرها ، كما قلنا ، فليس هناك ما يقطع بأنه يسير نحو الأفضل ، لسبب بسيط واحد هو أن الأفضل لم تتحدد جوانبه بعد . وارتفاع مستوى القارىء أحد الأسباب التي تجعل كفة الميزان قابلة للتأرجح ، لأن القارىء القديم — ونعني به قارىء ما قبل الحربين — كان سهلاً يمكن أن يقع تحت سيطرة البلاغة اللفظية بيسر من جهة ، وسيطرة المنطق السائد من جهة أخرى .

أما قارىء اليوم فهو أديب صغير قد استعد ابتداء لكي يدخل في حلبة النقاش مع المؤلف والكاتب ، بل الأمر أبعد من ذلك ، لأن القارىء أصبح ينتقي ما يقرأ ، ويوسع معلوماته المنسقة عن طريق المطالعة والتعقيب ، ولم يعد ذلك التلميذ النجيب الذي يقرأ سطور البلاغة وينتحب لليتيم في العيد على طريقة المنفلوطي مثلاً !

ولو نظرنا الى الأمر من جهته الأخرى ، فاننا نستطيع أن نعرف مدى ارتفاع مستوى القارىء من باب (رسائل الى المحرر) في المجلات الأدبية .

وهي تنطق باستمرار من ثنايا سطور التعقيبات التي يكتبها القراء العاديون على الانتاج الفكري بما يجعل الفجوة بين الكاتب والقارىء ضيقة جداً .

وفي بعض الأحيان يحلق القراء العاديون في أجواء عالية من التفكير المتسق تفوق جو المؤلف نفسه .

أصبح الأسلوب الأدبي قبل المحتوى .

هذه هي الظاهرة التي يراها الكثيرون ، والتي يمكن أن تفسر على أوجهها المتعددة ، ولكن لا يمكن نكرانها .

والضحية الفدائية لهذا التطور أو التغير ، هو البلاغة الكلاسيكية ، وهي تكاد تقضي بين عصر السرعة وارتفاع مستوى القراء الذين لم يعد يقنعهم رنة الجرس ، وفي بعض الأحيان تدهور ملحوظ في بناء الجملة .

وهنا نعود مرة أخرى الى الشعر .

فهو بطبيعة تكوينه يستدعي الأناة في النظم والأناة في الأداء ، وذلك ما لم تعد تحتمله حياة ما بين الحربين ، وهذا يفسر هروب بعض الشعراء الى الآفاق الجديدة من النظم الحر ومن عدم التقيد بالبحور وما الى ذلك من مسالك .

وكل هذا على حساب البلاغة الكلاسيكية .

وكل قول يقول بأن الشعر الجديد هو الأفضل يحتاج الى مسألة زمنية طويلة لكي يثبت على محك النقد ، ومن التسرع الحكم في هذه سلباً أو ايجاباً ، وإن كان من الثابت أن مخلدات من هذا الشعر لم تظهر حتى الآن ، وليس هناك من يحفظ قطعة واحدة من هذا الأدب الجديد الذي يراد له أن يغزو قلاع القديم الثابتة الأركان .

وخلاصة القول عن الأساليب ، أن غرسها لن يطول أمده ، وأن عصر البلاغة الكلاسيكية ، كما سميناه ، لن يزول بمثل هذه السهولة ، وبصورة خاصة في عالم الشعر .

ولعل السبب المباشر في هـــذا الاضطراب هو فترة القلق التي عانتها البشرية في القرن العشرين منذ بدايته . وليس بعيداً أن يكون هناك تلازم بين انعـــدام خطر الحرب والرجوع مرة أخرى الى عالم الأحلام والرؤى الذي يتمثل فيه عصر البلاغة الكلاسيكية على أوفى مداه .

ولا يقتصر ما ذهبنا اليه على الأدب العربي المعاصر وحده ، فالواقع أن اللهجة الأدبيـة في العالم بأسره قد تغيرت ، ولا أقول تطورت ، ولست شخصياً متأكداً من أنها سائرة في الطريق الأسلم أو الأفضل .

ماهي مهمة الناقد ؟

إذا خلصنا من (جغرافية) النقد الى أنه ذو أثر فعال في الحياة الأدبية لأنه يسوقها نحو الكمال ، واذا رسخ في الذهن أنه ذو حدود معترف بها في دولة الفكر ، فان علينا أن ننظر في مهمة الناقد ، ولو بصورة أولية .

ولابد من كلمة صغيرة حول طبيعة النقد في الحياة الأدبية ولنغض قليلاً عن القضية الجدلية القائمة وهي : هل يكون الناقد أديباً أو لا ؟ إن عليه أن يجود في مهمته ويعلو بها كفنان .

إن الناقد ، كغيره من المسؤولين الفكريين ، ينبغي أن تكون له حصته الكبرى من عمق البصيرة ووفرة من الطاقة الخلاقة التي يحتاج اليها الأديب والشاعر والفنان .

ومفروض فيه أن تكون له مثل عليا ، وأن تكون هـــذه المثل العليا مشتركة للعائلة الانسانية ، وإلا ففي الوسع أن يقوم الذكاء الفردي — في حالة الانفراد أو العزلة عن تلك المثل — بمهمة الخديعـة والانحراف عن طريق تزييف النقد واهـداره بدلاً من الارتفاع به نحو آفاق واسعة تزداد اتساعاً بمرور الأجيال .

والمثل الواضح في هـذا المجال هو القاعدة الماثلة في الحيـاة الأدبية ، وهي أن ناقداً لم يخلق أديباً أصيلاً قط ، وأن الأدباء الحقيقيين قد يغمرون في حياتهم ، ولكنهم لابد أن ينكشفوا للعيـان بعد ذلك ، سواء أعن طريق البحث أم النقد أم غيرهما .

فمهمة النـاقد الحقيقية هي الكشف عن المواهب ووضعها على المحك . ومن هنا تأتي صفته الأصيلة كمشارك فعال في الانتاج الأدبي . فالمفروض أنه من هذه الزاوية يكون شريكاً للأديب الخلاق ، ولكن من طريق واحد يتعداه .

✡✡✡

والمثال الحاضر الآن هو ما نشر حديثاً في عالم النقد الأدبي .

فقد صدر كتاب جديد عن ناقد أدبي قديم عرفتـه الحياة الأدبيـة الانكليزيـة في الثلاثينيات طوداً من أطواد النقـد والكتابة ، هو المرحوم (درموند مكارثي) .

فقـد كتب سيرته أحد الأدباء النقـاد ولم يترك شاردة ولا واردة من حياته دون أن يعقب عليها أو يضعها على المشرحة .

وقال عنه في هذا الكتاب أنه كان قوي العارضية في نقده ، ولكنه كان ركيك الخلق ، مطعوناً في بعض أحكامه الأدبيـة ، وسـاق على ذلك بعض الشواهد التي لا تقبل النقض .

وليس الكتاب والكاتب في مستوى التسـاؤل الذي مر بنا في صدر الكلام ، ولكنه مثل واحد مفيد يمكن أن يلقي ضوءاً على ما نحن فيه من تمييز لمهمة الناقد وقدرته على التأثير في الحياة الأدبية .

فان (مكارثي) لم يستطع أن يخلق أديباً أو يطفىء شعلة أديب . وكل

ما كان في وسعه أن يصنع ، هو أنه جلا بعض الحقائق الأدبية ، وساق القارىء الى بعض الدروب الضيقة في عالم الفكر ، لكي يخرجه منها سالماً كما يفعل الدليل الأديب مع السائح الذكي .

✡✡✡

ولابد من القول في هذا المضمار ان طبيعة حياة هذا القرن قد أصابها بعض التغيير الذي من شأنه أن يؤثر بدوره على النقد والناقد في حياتنا الأدبية .

فان حربين كونيتين متلاحقتين قد طغى تأثيرهما على أخلاق الجيل وعلى طباعه ، فجعل من العسير على رجل الشارع أن يمنح من عمره فترة زمنية تماثل تلك الفترة الزمنية التي كان يمنحها رجل القرن التاسع عشر مثلاً لأمور الفكر عامة ، وللشؤون الأدبية خاصة ، ولذلك نرى أن مهمة الناقد في الحياة الأدبية قد جمدت في جميع أرجاء العالم ، فرأينا هذا الانكماش في دور النقاد في حياتنا الأدبية مما يلاحظه كل فرد .

وقياساً على ما ذكرنا فان شأو الناقد قد ظل مدة طويلة مترجرجاً حتى في أرقى الأوساط الأدبية في العالم . فان الناقد الآن مهما بلغ من شأوه لا يستطيع أن يضارع أديباً مشهوراً أو كاتباً في القمة ، في حين أن الأمر يكاد يكون معكوساً قبل قرن أو أقل .

✡✡✡

ونحن هنا ، في العراق ، مسؤولون ومدعوون الى بعث الحياة في النقد الأدبي كمقدمة لنهضة أدبية شاملة ينظر اليها الجميع على أنها ضرورة لا بد منها .

فالواقع اننا نجتر الأدب اجتراراً ونعيش عالة على إخواننا في الأقطار العربية الأخرى .

وليس في هذا القول أية مبالغة أو مجانبة للواقع . فان زادنا من الأدب مقطوع من فائض انتاج البلاد العربية الأخرى - وفي مقدمتها لبنان ومصر - ولا يمكن أن يعيش بلد يريد أن يحتل لنفسه مكاناً لائقاً في العائلة الانسانية على غذاء غيره .

وما لم تتميز خصائصنا في نتاجنا الأدبي ، وما لم يخلق الأديب العراقي والفنان العراقي فسوف نظل نراوح في هذه المرحلة على غير هدى .

وما زلت أعتقد أن الأديب العراقي — كما هو مفهوم عالمياً من هذا التعريف — غير موجود ولا سبيل الى ظهوره اذا ظل الحال على ما هو عليه .

وفي رأيي أن جلاء هذه الحقيقة من مهمات الناقد الأدبي في هذه المرحلة من مراحل حياتنا الأدبية . وسوف أسعى جاهداً لكي أسهم في هذه المهمة قدر طاقتي .

خواطر حزينة

في واقعنا الأدبي

إن من أشد الملاحظات إيلاماً للنفس ، هذه الاعالة التي تتحملها البلاد العربية الأخرى لنغذينا عقلياً ، منذ فترة طويلة من الزمن .

فنحن عيال على مصر ، وعلى لبنان ، وعلى سوريا أيضاً في تغذية أنفسنا فكرياً . ومنذ أن خسرنا أدباءنا وشعراءنا الكبار الذين ورثناهم من العهد العثماني — كالزهاوي والرصافي مثلاً — لم تتسع حياتنا الفكرية لانتاج عوض عنهم ، بله أن ننتج خيراً منهم .

ومنذ الحكم الوطني حتى الآن لم يستطع الأديب العراقي أن يخلق نفسه . فما زلنا نجتر أدباً معاداً ، وآخر مقصراً في الأداء ، وثالثاً أنهكته السياسة بكل تلونها وانحدارها . ونحن نوهم أنفسنا أننا نجتاز عصر نهضة أدبية .

وصحافتنا ضئيلة الحجم الأدبي ، بل تكاد تكون منعدمة الوجود أدبياً ، ففي ما عدا بعض القصص التافهة ، والمقطوعات الخافتة ، لا تكاد تحس أن هناك ما يدعى بالأدب موجود بين صفحات الصحف ، لو لا أن بعضها يغترف — عن طريق الترجمة — شيئاً قد يجوز أن يسمى أدباً ، تشوهه

الترجمة السريعة . وهي طبيعة أصيلة في العمل الصحافي .

ويكاد الشعر ينعدم وجوده أيضاً إلا بمصاحبة النبرة السياسية . أما مكانة الشعر من حيث الكيف ، فهي اجترار آخر تلقائي لمجد شعري موهوم من موروثات شعرائنا الذين خلفهم لنا العهد العثماني حسب .

لا شك لدي قط من أن السياسة عندنا قد جنت على الأدب ، ولكن الوجه الآخر للقضية هو نواة أدبائنا أنفسهم . فلو كانت لهم تلك الاصالة الأدبية المفروضة في الأديب الحق ، لما كانوا عجينة في يد السياسة .

إن الأدب يتعكز عندنا على السياسة . وهذا اعتراف ضمني من أديب اليوم بأنه أقل شأناً من السياسي ، وأن الأدب جزء من السياسة . وهذا مقلوب الحقيقة قبلناه رأساً وانطوينا فيه .

يقول أحد أدباء اليوم(١) صاحب كتاب (ثورة على الفكر العربي المعاصر) في كتابه المذكور :

« ليست هناك قوة في الأرض ، لا قوة الأفراد ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، تستطيع أن تمنع الأديب من التعبير والقول وممارسة هذه التي هي تحمي وجوده .

« واذا استطاعت قوة ما أن تخرس الأديب ، فان ذلك عائد الى جبنه الخاص ، ما دام غير سجين بعد ، وغير ميت بعد . »

وهذا صحيح . وتفسيره أن ما يتعلل به بعض الأدباء من تضيق عليهم متمثلاً في الأنظمة السائدة في كل وقت ، إنما يكشف عن زيف أدبهم وضعف نواتهم . فلو كانوا — كما أسلفنا — يملكون الاصالة الحقيقية لما استطاعت أية قوة أن تمنعهم من الانتاج الرفيع .

---

(١) الأستاذ محيي الدين محمد .

إن الدور الذي نجتازه الآن ، والذي اجتزناه منذ بداية الحكم الوطني ، يستدعي أن يكون لدينا الآن جيش معنوي من أدباء خلقوا ضمن إطار هذا الحكم ، وتغذوا بغذاء قرن الذرة ، متطلعين الى غد أفضل .

ولكن الواقع أن هناك محلاً في أرض السواد . فنحن يأتينا غذاؤنا مع كل بريد من لبنان ومصر . وهناك من المطبوعات ما يطبع خصيصاً لكي يقرأ في العراق وحده ولا يقرأ في سواه من البلدان ،

وأسوأ ما في الأمر في نظري أن غداً أديباً أفضل لن يبزغ في وقت قريب ، بل أقرب الى الاحتمال أن يزداد تدهور المستوى الأدبي عمقاً قياساً على ما مصى ، وأن يبلغ حد المأساة .

إن ناقد اليوم لابد أن يلاحظ أن قدرة الكتاب والأدباء في التعبير الأدبي — ولا أقول في الخلق والابداع — قد وصلت حداً من التدني يخجل منه القارىء الوسط بله الناقد البارع .

والميل الواضح الى أبسط أنواع الأداء قد أغلق الباب نهائياً في وجه الابداع ، لأن الذي يفشل في الصغائر يعجز بطبيعة الحال عن الكبائر .

والفقر السيكولوجي العجيب من عيوبنا الواضحة ، فان أديبنا اليوم أشبه بالجالس في قارب تائه لا يعرف اتجاهه ، وهو يخاطب القارىء ولا يعرف منزلته منه ، وأغرب ما في الأمر أنه يتولى الأستاذية عليه ، وهو في أغلب الأحيان أقل من تلميذ له .

أديبنا فقير في ثقافته العامة ، ويكاد يكون جاهلاً من الناحية السيكولوجية ، وغبر معروف خارج قوقعته الصغيرة . وسيكون موعداً بعيداً ذلك اليوم الذي يخترق فيه الأديب العراقي هذا الجدار السميك الذي يفصله عن العالم العربي أولاً ، وعن العالم الخارجي أخيراً .

وما دامت السلطة قد تولت في كثير من المناحي رعاية الشؤون العامة ، وما دامت توالي ظهورها بمظهر المسارع الى دفع الحياة في عروق مجتمعنا الحديث ، فانها مشكورة على اندفاعها هذا ، ومسؤولة أن تمد اليد المنقذة الى حياتنا الأدبية .

وأنا أسارع الى القول بأن ما تستطيعه أية سلطة لا يمكن أن يكون مجدياً اذا لم تكن التربة صالحة .

إنك لا تستطيع أن تحصد ما يزرع في السباخ . فان الأرض وخصبها هو العامل الفعال في ذلك .

ولن تستطيع السلطات مهما فعلت أن تخلق أدباء في مجتمعنا ، بل كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تأخذ بيد الموجودين منهم .

إن الأديب الملهم لا يمكن أن تنطفىء جذوة إلهامه ، ولن يزرع الالهام زرعاً في الصدور . ومعنى ذلك أن المطلوب من السلطة هو أن تسهم جانبياً في خلق نهضة أدبية بكثبر من الجهد المشكور .

وفي وسع كل من يريد أن يسهم في خلق أدب عراقي مقبول ، أن يبدأ من البداية ، وهي تكاد تكون واضحة .

فقراء الأدب في العراق كثيرون ، والدليل على ذلك كثرة ما يباع من النتاج الأدبي العربي في العراق على اختلاف أنواعه وألوانه .

وفي الامكان خلق (صناعة) النشر في العراق تسند من السلطات وتشجيعها ، وهي أول الامكانات التي تخلق الأدب .

فان ما ينشر الآن مما ندعوه أدباً ، سواء أكان ذلك في الصحف أم بشكل كتب ومنشورات أخرى ، إنما هو من قبيل أدب التبرع والفضول . ولا يمكن أن يكون لمثل هذا النتاج أية قيمة طالما أن صاحبه (يريد) أن

ينشره بلا مقابل ، لا أن تكون هناك جهة أخرى (تريد) أن ينشر ، وأن يكون النشر بأجر معقول .

والأدب القائم على التبرع لا قيمة له ، ولا موقع ، ولا طعم . ومن حق صاحب النتاج الأدبي القيم أن يأخذ عوضاً مناسباً عن انتاجه القيم .

وعلى ذلك فان أول ما نحتاج اليه هو مؤسسات النشر الممولة تمويلاً صحيحاً ، ومن بعدها مؤسسات التوزيع التي تتولى إيصال هذا النتاج خارج الحدود .

كما أن الجوائز الأدبية الكبرى لأعلى نتاج ، يمكن أن تكون حافزاً آخر لخلق جيل أدبي ذي مكانة . وهي من ميسور ما تستطيع السلطات أن تقوم به عن طريق المؤسسات الخاصة بهذا الغرض . وفي الأندية الأدبية والمجامع المعترف بها مجال ليس بالقليل للبدء بمثل هذه الخطوة المأمولة .

ولا ريب عندي أن الصحافة ليست خير الوسائل للارتفاع بالمستوى الأدبي ، ولكنها الوسيلة الوحيدة الموجودة الآن في يدنا .

وعلينا أن نرتفع بالمستوى الصحافي أدبياً لكي يمكن لنا أن ننتظر ارتفاعاً مقبولاً في أدبنا الذي نأمل له أن يجتاز مرحلة الارتقاء .

✡✡✡

إن هذه الخواطر الحزينة مبعثها قلب مفعم بالأمل ، فهي ليست خواطر بائسة ، ولكنها كئيبة بحكم الواقع .

وليس كبيراً أن يستطيع مجتمعنا الحديث خلق جو أدبي يتناسب مع حياتنا ، وآمالنا في المستقبل الأفضل ، ويتسق مع النتاج الأدبي للبلاد العربية الأخرى .

وأرجو أن لا يبعث اللدد والمكابرة بالذين ينظرون الى هذه القضية

من وجه آخر ، على إغفال الواقع ، والتظاهر بالارتفاع فوقه في سبيل ترضية غرور لا يقوم على أساس .

إن إخفاء المرض لا يشفيه ، وإنما يشفيه العلاج الناجع حسب وصفة الطبيب . وليس وضعنا ميئوساً منه لكي ننفض يدنا عن المريض ، بل لعل هذا هو أنسب الأوقات لكي نعالجه .

خواطر حزينة

في مستقبلنا الأدبي

يعجبني أن أذكر بالخير أولئك الذين يتحدثون بين آونة وأخرى ، عن (نهضتنا) الأدبية في غضون ما أنجزناه من (نهضات) كثيرة ، وعن (وجود) الأديب العراقي الذي جرؤت مرة على إنكاره فهبت علي رياح السموم . ويسوقني كل ذلك الى أن أتحدث بحزن — كما تحدثت في الماضي — عن (شغلنا) الأدبي الحزين ، بعد أن قلت كلمة عابرة في حاضرنا .

والذي يمكن أن يقال في هذا الصدد لا يختلف في الروح عما قيل ويقال ، لأن الجذور واحدة . فنحن نجتر ولا نبدع . ونقول لأنفسنا خادعين ومخدوعين اننا في (نهضة) وانها آتت أكلها مرتين !

ولا اريد أن أتصنع الحزن على مفقود كما يفعل الثكالى ، فأنا حزين كما يشعر العقيم بالألم ، لأنه لا ينجب ، وقد رافقتني هذه العلة المزمنة منذ ثلاثين عاماً أو تزيد ، وما زلت أشكو منها ، وهي علة العقم الفكري الذي يغلف حياتنا الأدبية في العراق ، لأنه فقر يدعو الى الحزن والألم اكثر مما يدعو اليه فقرنا الآخر ، لأن كل مظاهر الفقر الآخر تحمل في طياتها

عفوية قد تبعث على الحزن ، ولكنها لا تبعد عن الرجاء . أما هذا الفقر الذي يمضني فلعله يحمل في طياته نية الاصرار — وبشراسة — على الجرم العمد ، لا على العقوبة .

✡✡✡

لقد أردنا أن ننفرد بالحكم وأن نصنع جيلنا الحاضر ، وجيل المستقبل بأيدينا نحن . وتهيأنا لصراع صغير في جميع المجالات . وككل وليد يرى النور لأول مرة ، كان حكمنا الوطني صعب الولادة ، وفيه الكثير من الألم الممض . وكان حرياً أن ينتهي ذلك كله بأجله المحتوم كما تنتهي آلام كل ولادة بين الأحياء ، ولكن واقع الحال يوحي بأن آلام الطلق وآلام الولادة ما تزال تحوم . وفوق ذلك كله ما يحس به مثلي — وأمثالي كثيرون — من تجهم المستقبل .

✡✡✡

والمستقبل محكوم عليه منذ الآن .

فاننا نشكو منذ فجر الحكم الوطني من علة الفقر الفكري بحيث اننا ما زدنا عن أن نكون عالة على جيراننا من الأقطار العربية — وأولها مصر وبعدها لبنان — نقتات منها زادنا كل يوم .

وقد آل ذلك الى أن نظل في الصف الواحد لا نتقدم ، لأن الصف المتقدم يتقدمنا بنفس مسافة الخلف ، فنظل مراوحين .

ونحن نعتقد الابداع ، لأننا تعودنا من طول التكرار على مبدأ الاجترار وقد تعود القارىء من مفكرينا أن يعودوا فيقولوا ما قالوه ، وهذا داء يصعب فيه الدواء ، ولا حيلة فيه إلا اذا بعث الله لنا جيلاً مملوءاً بحسن القول ، ويحسن أن يقول ما يجب قوله في هذه الفترة من الزمان .

ونحن نعيش أدبنا من غير معاناة ، فالقاص يكتب عما يسمع ، والشاعر ينطق بما سبق أن بزه به بدوي القرون الأولى ، والكاتب يلوي الفكرة ليا لكي يبدىء من حيث انتهى .

وسوف نظل نراوح في هذه الفترة الشاقة نصف قرن آخر على الأقل ، أي الى أن يخلق الجيل الجديد الذي يعاني ويعتصر قلبه ، ويخرج لنا نتاجاً يمكن أن يقرأ في غير العراق ، اذا كان ما يكتب في العراق يقرأه العراقيون .

ولست أريد أن أصف الدواء بما يتبع ذلك من تفاصيل ، وإن كنت أعرف منها المزيد بحكم العادة ، ولكن تشخيص الداء يسبق في الأهمية إعطاء الدواء . وعلينا أن نقر بواقع الحال ، وهو أنا مقلبون على فراغ أدبي في مستقبلنا ، يمتد من الفراغ الذي نعيشه اليوم .

إن أعمق الجهل أن لا يعرف الجاهل أنه جاهل . وأشد الاسراف أن ينفق المنفق عن استدانة . فنتيجة ذلك إغراق في الافلاس يضيع العمر كله فيه شديد الديون .

إن شبابنا يقرأ للفارغين ، ويؤله المرددين ، ويتشبث بالهراء . وما يوجع القلب أننا قانعون — بل نقنع أنفسنا — أن هذا هو المطلوب ، وربما كان ذلك فوق المطلوب .

إن نتاجنا الأدبي — على ضيقه — لا يتعدى شارع الرشيد في بغداد . فلا يعرف القارىء العراقي في غير العاصمة إلا القليل ، ولا يصله إلا الأقل ، لأننا نفتقر الى أداة توزيع قادرة على أن توصل هذا الانتاج الى أبعد ما تصل اليه سيارة فارغ يتلهى بالمسير .

وطباعتنا تسير في عمر الزمن مسافة مائة سنة الى الوراء على الأقل ،

وبعد أن شاعت طباعة (الأوفست) مثلاً في كل أقطار الأرض ، لا تزال أعز من الكبريت الأحمر في بلادنا .

وصناعة النشر في العراق يزاولها بعض الهواة فيتعثرون . ولست أدري كيف يقومون على أرجلهم بعد كل كبوة ، في حين أن هذه الصناعة من أوليات علامات التقدم في كل بلاد الأرض .

إن الأديب في بلادنا لا يزال يعيش عالة على الوظيفة أو العمل العام الآخر الذي يستهلك وقته الأثمن . ولم نستطع حتى الآن أن نهيء حالة التفرغ لجانب من ذوي الفكر عندنا ، وقد هيأتها ج . ع . م ، مع أنها لا تملك الطاقة المادية في هذا المجال كالعراق ، فهي تقطع من لقمتها ما يطعم الأديب ، ونحن نتفرج عليه وهو يلوب في سبيل اللقمة .

إن الأديب في بلادنا لا يستطيع أن يخلد ، فهو في أول مراحل النمو ، إن كان له نصيب فيه ، في الوقت الذي تزداد فيه الخطى سعة ، والمجالات وفرة ، والامكانات عدداً واستعداداً .

لذلك أعود فأقول إن التشاؤم يلفني من الجهات الأربع عند ما أنظر في مستقبلنا الأدبي ، ويكاد قلبي ينقطع وأنا أقول ذلك برغمي .

شرق .. وغرب

إنتهى النصف الأول من القرن العشرين وفي غضونه حربان كونيتان ، وبدأ النصف الثاني منه وفي غضونه جنين حرب كونية ثالثة .

وقد قيل إن توقع الامتحان أشق من الدخول فيه . ولذلك فان توقع الحرب المظنونة ، إن لم يكن أشق من الدخول فيها ، فهو لا يقل عنه سوءاً .

ومعنى هذا أن مدنية الغرب ، بكل كلاكيلها ، لم تصنع — طيلة قرن كامل — شيئاً لراحة الانسان ، بقدر ما صنعت لقلقه واضطرابه وانهزامه أمام الحياة .

ليس يبدو في الأفق — فوق ذلك — أن هذه المدنية الرؤم سوف تستطيع أن تصنع شيئاً في سبيل الانسانية في المستقبل اكثر مما صنعت في الماضي .

وما صنعته حتى الآن هو سباق التسلح وارتفاع أصوات المتخاصمين العقائديين بما يهدد بأن يلجأ جميع الأطراف المتخاصمة الى استعمال السلاح وهو ذري وهيدروجيني مهلك في هذه المرة !

فما هو الأفضل يا ترى لمصلحة الانسان ؟ هل هو هذا العصر المضطرب

الذي يتأجج بنار الحرب ، أم عصور الظلمات التي كانت البشرية فيها فقيرة لمخترعات العلم الحديث ، ولكنها غنية بما لديها من راحة الفكر والضمير ؟

والجواب في نظري لا يفتقر الى الاستعجال قدر ما يفتقر الى الروية وأعمال الفكر . ولكن ما لا شك فيه مطلقاً ، هو أن الشكوى من هذا العصر المضطرب الذي لا راحة فيه عامة من جميع الأطراف بلا استثناء .

✡✡✡

ونحن الشرقيين ننظر باحترام — لعله ممزوج بالخوف والرهبة — الى منجزات العلم في الغرب ، ونشعر بتفوق الغرب علينا في جميع المجالات ، وهو أفوق فعلاً ، ولكننا ننسى شيئاً بسيطاً كان ينبغي أن لا يذهب عن بالنا .

وهذا الشيء البسيط هو أن الغرب معذب بتفوقه عذاباً قد لا يقل عن عذابنا نحن بشعور النقص الذي نكابده من جراء ذلك التفوق ... والأصح أن نقول أن الغرب يتعذب والشرق يتخيل أنه معذب . ولو تركت الأمور على أعنتها لما شعر بهذا الشعور ولما أدركته عقدة النقص وطلب التعويض على نحو ما يرطن به السيكولوجيون .

وهنا الحلقة المفرغة !

فلو استطاع الشرق أن يتخلص من هذا الذي نسميه خيالاً ، وهو في الحقيقة واقع ملموس ، لما كان متخلفاً ، ولأستطاع أن يستبق مع الغرب ويطاوله في الميادين كافة أو في أغلبها على أوسط الظنون .

✡✡✡

وما الذي جعل الغرب يتفوق على الشرق في أزهى عصوره ، وهو العصر الحاضر ؟

إن الجواب الجاهز هو أن الفرصة متكافئة من حيث التكوين بين الاثنين ،

وأن التفوق الغربي لم يأت عرضاً ، وإنما جاءت به سلسلة طويلة من العرق والدموع في بعض الأحيان .

ولكن الأصح أيضاً أن هـذا التساؤل له الجواب نفسه عند ما نتحرى أسباب تفوق الشرق السابق في العصور الأولى .

فمما لا شك فيه أن العرب مثلاً تسلموا حضارة وخلفوا مثلها قبل أن يكون للغرب الحاضر أي كيان يعتـبر به . فهـل كان ذلك التفوق الذي في حينه منحة من الطبيعة ، أم أنه ثمرة جهد خاص نشعر بثقله الآن ؟

إننا نشاهد كل يوم مثلاً يجيب عن هـذا التساؤل إجابة غير مباشرة ، ولكننا لا نلتفت اليه .

فلا يكاد يصلنا أي من منجزات العلوم الغربية شيء حتى نتلقفه ونطوي أضلاعنا عليه ، ثم نتمرس في الاستفادة منـه ونعتاد عليه كأننا كنا صنعنـاه بالأصل . وكثيراً ما نشاهد أمياً يفلسف في الميكانيكا كأنه واضع نظرية .

فمن أين جاءت لنا هذه الدرية في أول مراحل التماس مع المنجرات العلمية ، ولماذا لم نقف أمامها مشدوهين كما يفعل زنوج أفريقيا مثلاً وهم مثلنا سواء في جهل الأصول ؟

إن الجواب عندي أننا ذوو خط مشترك في الفهم العـام مع الغرب ، ولعلنا في بعض الأحيان القليـلة نتفوق في هـــذا الباب ، ولكننا نقصر في الابداع والخلق ، لأننا وقفنا منذ وقت طويل من الزمن هذا الموقف واعتدنا عليه ، ومن الصعب على الانسان تغيير العادة .

لسنا مقصرين لأننا ناقصون ، بل لأننا يائسون من نتيجة السباق مقدماً مع الغرب فتركنا الحلبة .

ولعلنا لو اشتركنا في السباق لما قصرنا .

إن الفرق بين الشرق والغرب كما يقال في هـذه التسمية مفتعل من أساسه ، لأن الغرب نفسه ذو شقين ، أحدهما متفوق والآخر أقل منه تفوقاً وإن كان غرباً هو نفسه .

فلماذا هذا التفوق إذن ؟

إنها الحاجة النفسية الى الابداع والخلق ، وهي لا علاقـة لهـا بالشرق أو الغرب ، ولكنها ذات علاقة بالضمير الانساني وبالنفس البشرية ، وليس للجغرافيا حظ كبير فيه .

ومنذ متى كانت أمريكا مثلاً غرباً بحتاً ، ولم تكن البرتغال أحق منهـا في هذه التسمية ؟ أو العكس .

وما هو التأويل الصحيح في البون الشاسع بين الاثنين ؟

ليس ذلك هو المثل الوحيد ، ولكنه مثل دال دلالة كافية لغرضنا .

✡✡✡

لا أقول بما يقول به المتطرفون من الغربيين بأن الغرب قد انحط وتدهور ، أو أنه في طور الانحطاط والتدهور كما يقول (شبنجلر) مثلاً ، ولكني أقول ان في وسع الشـرق ، على علاته ، أن يكون غرباً اذا اعتـبرنا التسميتين تدلان على التقدم والتخلف ، وبجهـد ليس بالكبير جـداً على من يريد أن يصحح بعض الحقائق في عالمنا ، ما دام أغلبها يحتاج الى مثل هذا التصحيح .

ثورة على الفكر العربي المعاصر

تأليف : محيي الدين محمد
منشورات المكتبة العصرية
صيدا ـ بيروت (٣٦٥) ص

لم أقرأ لمؤلف هـذا الكتاب قبل الآن . ولست أدري إن كان له من الكتب غير هذا الكتاب ، فان وجد فقد خسرته كقارىء .

وبالرغم من اختلافي مع المؤلف الفاضل في كثير من المقولات الواردة في كتابه ، فاني أبدأ الحـديث عنـه باطراء طريقته في البحث ، وتجرده ، وسعة اطلاعه ـــ وبخاصة في الأدب الغربي ـــ وحسن الهدف الذي يقصد اليـه .

وبالرغم ـــ كذلك ـــ من أن أسلوبه الكتابي ، وإن كان يمتاز بالدقة والاصـالة ، يميل الى البسط الغربي ، فاني أحببت فيـه نزوعه الى إغنـاء القارىء دون أستاذية ، وإن افتقدت فيـه الأسلوب العربي البليغ في بعض الأحيـان ، فقـد كان في وسعه أن يمنح أسـلوبه طراوة البلاغة العربيـة في البسط ، ولكنه آثر النحو الغربي في الأداء ، ولا عيب في ذلك .

وفي الكتاب مزيتان :

أولاهما ؛ أنه صدر في الوقت الحاضر ، وكأنه على موعد مع هـذا الزمن .

وثانيهما ؛ أنه عالج موضوع الحرية الفكرية بجميع أشكالها معالجة جديدة .

والكتاب مجموعة مقالات دراسية عن هموم الأديب المعاصر ، وعن الفكر العربي الذي يختمر في هذه المرحلة التاريخية ، ويعاني آلام الوضع لمولوده الجديد .

والمؤلف ناقد ذو بصيرة ، وهو فوق ذلك ناقد ذو رأي ومنهج ، وله اطلاع وافر في الموضوع الذي يكتب فيه ، وحسه الأدبي ليس قليلاً ، ولكنه أقل من ذهنه ، فهو بذلك أقرب الى المفكر منه الى الأديب ، ولغته سليمة ، وإن اعتورها في بعض الأحيان كبوات هينة ، فان ذلك مغفور في مثل هذا الوقت الذي يتمايز فيه كثير من أرباب الكلمة في تقليد الأسلوب الغربي على علاته ، ويشقون في سبيل تحصيل ما هو متحصل في اللغة العربية ، فيكشفون بذلك عن تقصير أصيل فيهم ، وجهل معيب بلغتهم .

وقراءة هذا الكتاب ملذة ، وهي فوق ذلك مفيدة ، وهو يهز القارىء في بعض الأحيان هزاً رقيقاً أو عنيفاً لكي يوقظه .

✡✡✡

إن تحليل المؤلف للفكر العربي المعاصر يكاد يكون تاماً مستوفياً لجميع عناصر التحليل . فهو يعترف بأن علم الاجتماع بفروعه الأربعة لم يستطع — في تاريخ كلياتنا — أن يخرج مفكراً اجتماعياً كبيراً عربي القسمات ، وهو يقوم بهذه المهمة بشيء ملحوظ من التوفيق .

ولكي نحدد طريقته ومنهجه في البحث والتدليل ، نقتبس منه هذه

الفقرة الدالة على بصيرته النافذة فى رسم الثقافة العربية وتاريخها المقارن مع الغرب :

« إن تاريخ الثقافة في الغرب يشبه إناء من الماء القراح تضاف اليه بين كل آونة وأخرى قطرات من الألوان المتغايرة . صحيح انها ألوان يمكن أن تغير لون الماء كلية ، لكنها لم تفعل فيه أكثر من توحيده بلون واحد متحد في كل جزئياته . أما في شرقنا العربي فهناك طبقة من الزيت بدل الماء القراح ، لا تستطيع الألوان أن تتحد به إلا بصورة شوهاء ودميمة للغاية ، وذلك اذا مثلنا الماء القراح بحرية العقيدة » .

وهذا مثل صحيح يمكن التدليل عليه وتطبيقه على واقعنا الأدبي في جميع الأقطار العربية .

وهو لا يني يقول إن حياتنا تسير وفكرنا واقف . ومن هنا مسافة الخلف التي يجب أن نقطعها مسرعين . « وأكبر مأساة في تاريخ العرب الحديث هي خلوه من الشهداء في سبيل الحرية » .

والمؤلف ذو حصيلة كبيرة من قراءات منتظمة وثقافة عميقة . فانه ذو صورة واضحة في جميع ما يكتب من مواضيع ، ومن جميع الزوايا .

والجانب الفلسفي من موضوعات الكتاب يلذ القارىء المفكر . فالمؤلف يرى أن العلم يبتعد عن الواقع الانساني ، ولعله سيصل الى مرحلة ما وراء الطبيعة القديمة فيصبح بذلك مستحيل التطبيق في واقعنا الأرضي .

وحديثه المستفيض عن — الوجدانية — حديث مدرك محيط بفلسفتها وناقد له . وكذلك شروحه للنظرية المادية والروحية . أما تحليله الفريد لهموم الشباب في الجمهورية العربية المتحدة فقد امتاز بالعمق والحدة لم نجد لها مثيلاً في غير هذا الموضوع .

إنه يقول عن حياة الشباب المصري :

« إن حياة الشباب المصري في المدينة حياة صغيرة وتافهة ، لأن كثرة الملاهي تمتص رحيق حياته ، ولأن ليالي أم كلثوم واسعة الانتشار ، بما فيها من حشيش وخمر تقدم الى الشاب المتخم إمكانيات متعة بسيطة تغمر ارادته من الخدر الرائع . وكثرة المقاهي ، بما فيها من نرد وطاولة واجتماعات على مستوى التهريج تكسر فيه حدة الوعي ، وتحوله الى طلب الهدوء والسكينة ، ويؤازر ذلك مستوى الجريدة والاذاعة المتدنيين ، فالبرامج التهريجية في الاذاعة والجريدة تلقى القبول وتشجع المشتري ، فيعود الكسب العظيم على الجريدة فتتمادى في ذلك ، وليذهب الوعي والتطور والثورية الى جهنم » .

ولا شك في أن المرارة من هذا القول في محلها ، ويزداد عمق المؤلف في التحليل عند ما يقول معقباً على ذلك :

« إن طول العهد بالاستعمار قد أشعر الشعب في مصر بوجوب المقاومة في أية حدود ، فكانت السخرية بهذه الدول وبرؤسائها — ولو رمزياً — والسخرية بالحكام المصريين ، دافعاً الى تفريج الأسى المختزن في باطنهم ، والألم الذي يكتسح كل شيء .

« وكان هذا التفريج وازاحة الهم يبلدان الارادة ويسحقان العمل ، وذلك لأن الدافع الى الثورة قد أزيح عن طريق النكتة والسخرية . »

✡✡✡

وفي موضوع حرية الفكر وأزمة الأديب في المجتمع يتساءل المؤلف « هل يستطيع الأديب أن يمارس التزامه دون خيانات في أرض لا تحكمها الحرية وفي مستوى مادي تعس ؟ هل يستطيع الأديب أن يتجاوز ظروفه ؟ »

ويجيب على هذا التساؤل في موضع آخر بقوله إنه اذا استطاعت قوة ما أن تخرس الأديب ، فان ذلك عائد الى جبنه الخاص ما دام غير سجين بعد ، وغير ميت بعد .

ولا شك أنه مخلص في موقفه ، ولكنه بعيد جداً عن الانصاف عند ما يضع اصبعه على العلة الموجعة ، ويعرف مقدار الوجع ، ثم يتركه بعد ذلك متراخياً الى قدرة تحمل المريض لأقصى درجات الألم مطالباً إياه بكل التضحية .

إنه يقول من غمار أطروحته الجميلة عن هذا الموضوع الحساس « في مأساتنا هذه ، لم تكن السلطة هي الجدار الذي تكسرت فوقه قبضات المفكرين العرب النادرة ، بقدر ما كان الجدار عواطف الجمهور ورضاه .

فالى أية جهة ينبغي أن يذهب ذبح الضحية ؟ الى السلطات أم الى الجمهور أم الى التخلف الفكري نفسه ؟

إن الأديب ضحية المجتمع العربي بتكوينه الحالي . ومن الظلم أن يترك على شخصه الضعيف وكاهله الثقل كله ، وأن يلام على كونه لم يشترك في خلقه ، وإنما اكتوى بناره .

إن الأديب لا يزال في طور الصراع للخروج من مأزق الازدراء الذي كان ينظر به اليه مجتمعه الصغير ، لكي يخلق لنفسه كياناً صغيراً آخر يشعر فيه بدفء الاحترام .

كثيرون هم الذين ينظرون الى الأديب كما ينظرون الى مخبول ، وأكثر منهم ، ومن طبقة المثقفين الكبار ، يرون الى أن الأديب لا ضرورة له ، وأن المجتمع يستطيع أن يستغني عن الكلمة ، بل منهم من يتشدد فى طلب ذلك .

والأديب .. ذلك الشخص الهزيل الجسم ، القليل المنعة ، هو وحده الذي يصارع اليم .

ومع ذلك ، فان أديباً ممتازاً يقسو على الأدب والأدباء هذه القسوة !

ومع ذلك أيضاً ، فلعل في هذه القسوة أمثولة لكلا الطرفين ، أو لكل الأطراف المعنية . فان مجرد الحديث عن الأديب وضرورته ، وعن حرية الفكر وضرورتها ، أمر يجب أن نحتفى به كل الاحتفاء .

الى هنا وأنا مع المؤلف الفاضل في طريق طويل من مسيرة شائقة ، ويدي في يده .

أما في القسم الأخير من الكتاب ، فاني أقف مشيراً له بأن هذا هو نهاية المطاف بالنسبة لي .

وأقصد بذلك موقفه مما يسمى بالشعر الحر ، أو الشعر المنطلق ، أو الشعر المرسل ، أو ما شئت فسمه . فانه يضعه في مصاف الشعر ، وأنا لا أراه شعراً ، وإنما هو مخلوق أضاع فائدة النثر وجمال القريض معاً . أو هو كما يقول الأستاذ فؤاد عباس — تنهدات — خافتة تذهب مع الريح .

وقد خصص لها المؤلف الفاضل جزءاً ليس باليسير من كتابه ، وعرض نماذج منه وحللها على طريقته ، وتطرق الى شعر (اليوت) محاولاً شرحه بأسلوب جديد ، وردود جديدة على تفسيرات قديمة لقصيدة (الأرض الخراب) التي بنيت عليها شهرة (اليوت) كشاعر كبير .

ويقول من غضون كلامه عن الشاعر انه « الفرد الوحيد الذي يعرف حكاية القصيدة من أولها الى آخرها » . فلماذا لا يكتب هو شرحاً لكل

قصيدة في نهاية ديوانه ؟ ويرد على ذلك بأن سكوت الشاعر عن الشرح « إغناء لوعي الشاعر ذاته ، لأنه في الحقيقة لا يدرك تماماً المغزى الأصلي لافصاحه الشعري » .

وموقف المؤلف كناقد هنا يستحق التسجيل . فهو يقول في هذا المجال ان الشاعر « يستخدم قدرته بالابانة على إزاحة هم من صدره ، ولن يعنيه أن تكون التبريرات صفراء أو خضراء . وهكذا تخرج القصيدة تحمل وجهك ووجهي ووجهه » .

وهذا صحيح جداً اذا انصرف الشعر الى الغيبيات ، وهو طريق معبد للشعراء ، ونجد مصدقه في (صوفيات) الشعراء على اختلاف جبلاتهم وجنسياتهم .

ولكن أين يقع الشعر الحر في هذا المضمار ؟ ولماذا يستوحد الحلبة لنفسه فقط ؟ ويتعالى على الشعر القريض كما يريد له أصحابه أن يكون ؟

وكيف يجوز لنا أن نسميه شعراً وقد سبقه الى هذه المرحلة شكل آخر من أشكال الأداء الفني يفوقه قدرة على التعبير ، لا بالايماء فقط ، ولكن بالاغناء التام بكل ما تحويه قدرة الكلمة السحرية على البيان ؟

لماذا نصعد على سلالم من خيوط تتراقص تحت أقدامنا وأمامنا درجات مبنية بالاسمنت المسلح ؟

لماذا نتراجع الى التعبير الأوهى ونترك التعبير الأرقى ؟

الجواب الجاهز عندي أن هؤلاء الذين ينغمسون الآن في هذه الفورة من الشعر الحر ، أو أغلبهم ، عاجزون عن التعبير الأرقى .

ولم يكن العجز يوماً من الأيام تبريراً ولن يكون . وكذلك لن يكون لهذا الطراز من التعبير الواهي مستقبل أدبي لسبب بسيط جداً هو أن هذا

الشكل من أشكال الأداء لا يمكن أن يكتب له البقاء ، لأنه لن يروى ولن يحفظ .

✡✡✡

أمامي الآن قطعة نشرتها مجلة محترمة استلتها من ديوان شعر لأحد الشعراء الطالعين .

« مررت على الحزن وجدت الحزن حزينا
يشكو لي أن بكاء القرن العشرين قليل
لا يشفي أي غليل
ويقول الحزن : بكائي في الأرض طويل ،
فلماذا في الحزن ابن العشرين يكون ضنينا ؟ »

وفي وسعي أن أضع لهذه (الأبيات) أكثر من تفسير واحد ، وفي وسعي أيضاً أن أجعل هذه التفسيرات تتناطح بتناقضها .

فما هو (الاغناء) الذي يمكن أن يستغنى به القارىء من هذا الطراز من التعبير ؟ وهل كان يعجز شاعر القريض أن يضع هذه الأسطر بشكل آخر يفوق هذا الشكل المتراخي المترهل ؟

لا شك عندي في أن ذلك هو الممكن ، وأن ما لم يكن ممكناً هو قدرة الشاعر أن يكون في تعبيره أرقى مما كان . وهو عجز يؤخذ به صاحبه لا أن يبرر له تلك التفاهات ويجعل منها قصائد تطالبنا بالخلود .

لقد قرأت في العدد الأخير من الزميلة (الآداب) فصلاً طويلاً للدكتور محمد النويهي يشرح فيه قصيدة من بضعة أبيات لصلاح عبدالصبور عنوانها (أغنية من فيينا) وقد قرأت القصيدة مرتين قبل الشرح وبعده ، فوجدت أن الشارح قد أطال القول في تحصيل الحاصل ، وأن القصيدة لا تستحق

كل هذا العنـاء ، فهي ليست من مستغلق التعبير ، وإنما أراد الشارح أن يضع لها الحواشي والتزاويق لكي يقول إن الشاعر استطاع بطريقته هذه أن يقول ما لم يكن بوسع غيره أن يقول !

والحق أن ذلك عنـاء يتحمله كثيرون ممن يريدون لهذا الطراز من التعبير أن يحتل له مكاناً في عالم الكلمة ، ومن جملتهم الأستاذ محيي الدين محمد صاحبنا . وأود أن أخصه بالحديث ، لأنه يرتفع في تفكيره عن أمثال شاعرنا صاحب الحزن الباكي الذي اقتبسـناه آنفاً . فأقول بمناسبة الحـديث عن كتابه الرائق هذا أن النقطة الوحيدة التي تجعل كتابه عندي من خيرة كتب المطالعة هو قسمه الأخير الذي تركه لهذا الغثاء الذي سماه شعراً .

عقابيل المأساة

تأليف : مونتغمري هايد

لعل أصدق ما قيل عن أوسكار وايلد ، أن حياته خير من كتبه ، على عظمتها .

وقد قال ذلك كثيرون ممن درسوه وعرفوه معرفة شخصية ، كما قالها هو نفسه قبل أن ينحدر في أعماق مأساته المعروفة .

لقد كان يكرر القول بأن حياته أثمن ما لديه ، وأن خير مؤلفاته ما لم يكتبه بعد .

ولو كان هناك أوسكار وايلد آخر لاستطاع أن يجعل من حياة وايلد الحقيقي مأساة مؤلمة تدين العقلية الانكليزية في القرن الماضي ، وتحكم عليها بالجفاف والتنطع والحمق .

لقد قال برناردشو أن القاضي ولز — وهو الذي أصدر حكمه المعروف على وايلد بالسجن لأقصى العقوبة — كان أضحوكة دهره بعد أقل من ثلاثين سنة عند ما حكمت المحاكم الانكليزية نفسها على جرائم مماثلة بأحكام تكاد تكون رمزية ، بعد حكمه على وايلد ، بالقياس عليها جريمة انسانية أقرب أن تكون قتلاً معنوياً مع سبق الاصرار منها الى العقوبة القضائية المجردة .

فقد أراد ذلك القاضي المتنطع أن يتظاهر بالعفة على حساب وايلد ، فشحن قرار حكمه بما يفيد بجلاء عن تحامله الواضح على وايلد ، فكان أخرق واستحق أن يكون موضع النقد الشديد ، إن لم نقل موضع النقمة والزراية ، حتى من القضاة والقانونيين .

✡✡✡

لقد صحت نبوءة وايلد عند ما قال إن القرن العشرين لا يستطيع أن يتحمله ، فتوفي سنة ١٩٠٠ بعد أن توارى عن الأنظار وهو في قمة مجده الأدبي ، ولم يكتب عنه أحد — بل لم يجرؤ على ذلك أحد — وهو في غمرة المأساة . ولكن الكتب والدراسات توالت بعد ذلك ، وبلغت حداً كبيراً في سنة ١٩٦٠ ، وهو موعد فتح رسالته المعروفة (من الأعماق) في المتحف البريطاني . وكان من ضمن هذه الدراسات والكتب ما كتبه إبنه المحامي فيفان هولند بعنوان : إبن أوسكار وايلد . وقد جاء ببعض المعلومات غير المطروقة عن أبيه وحياته مما يفيد المؤرخ الأدبي وكاتب السير .

أما كتابنا الحالي فهو آخر ما صدر عن وايلد ، ولعله أجدرها بالذكر ، لأنه يؤرخ جانباً يكاد يكون مجهولاً من حياته المغمورة في السجن وما بعده الى يوم وفاته ، وهي فترة لم تلق من يدرسها قبل الآن .

ومؤلف الكتاب هو المحامي والكاتب البريطاني المعروف هايد ، القضائي الأديب صاحب التآليف العديدة عن المحاكمات الشهيرة ، ومنها محاكمات وايلد نفسه ، وقد صارع في مجلس العموم البريطاني لكي يحصل على إذن بالرجوع الى ملفات السجن ويستخرج منها بعض المعلومات التي ضمنها كتابه الذي نتحدث عنه .

✡✡✡

إن هـذا الكتاب ، والحق يقال ، وثيقة انسانية تكشف بعض ما علق بشخصية وايلد الأدبية من غبـار المأساة ، وتظهر ما كانت عليه انكلترة من غباء وتنطع في أواخر العصر الماضي — ولعلها لا تزال فيه حتى الآن — وتصور ما في المجتمع الانكليزي من نفاق أصيل ، وتدين السلطات الانكليزية بما يكاد يشبه الجريمة في ادارة السجون الانكليزية في ذلك العهد ، مما خلد كلمة وايلد المشهورة : إن ما يحتاج الى الاصلاح ليس هو المساجين الانكليز ، بل هي السـجون الانكليزية نفسـها . . تلك الصرخة التي تبنتها جريدة نيوز كرونكل وقتذاك ، والتي يعزى اليها الفضل فيما أصاب هذه المؤسسات من تحسين منذ ذلك العهد حتى الآن .

ولا ينقص هذه الوثيقة الانسانية أسانيد تثبت ما ذهب اليه المؤلف ، بل هي مشحونة بما يخجل مؤرخ ذلك العهد . فقـد جاء في وصف سجان وايلد ، واسمه ايزاكسون ، ما يذيب الصخر عند ما كان يتسحس لحالة وايلد ويشفق عليه .

***

لقـد اتضح الآن أن وايـلد ذهب ضحيـة ذلك اللورد المتأنق الفريد دوكلاس ، وأن الجميع تخلوا عنه بشكل يبعث على التقزز بعد سجنه حتى دوكلاس نفسه .

والواقع أن نكبة وايلد قد جاءت ثمرة خصومة غير انسانيـة بين والد مهووس هو المركيز كوينسبري وزوجته ، وكانت هذه الخصومة عنيفة الى حد غير طبيعي . فلما انحاز ابنهما اللورد الفريد دوكلاس الى جانب أمـه ضد أبيه البغيض ، ثار ذلك المجنون وأراد تحطيم الاثنين . وكان وايلـد يتصل بالأب بصداقة وثيقة ، ولكنه لم يكن مجبراً على دخول هذه المعركة الجنونية

السخيفة ، ومع ذلك قد تطوع لدخولها طرفاً أساسياً ، بل كان ضحيتها .

وانتهت تلك المعركة السخيفة بنهاية واحدة هي محق عبقرية من عبقريات الأجيال الأدبية ، وبقيت المعركة الحقيقية بين الأب والأم والولد على ما كانت عليه في الماضي .

لقد كانت انتحاراً أدبياً من جانب وايلد العبقري ، تركت وايلد الانسان بكل نواقصه وضعفه أمام عقلية انكليزية متنطعة منافقة لا تعرف للرحمة معنى في أحكامها .. لعلنا نشاهد مثيلاً لها يتكرر في قضية الدكتور وارد المعروفة .

وقد أدى هذا الانتحار الأدبي الى اغتيال فكر خلاق حاول أن يقوم بعد كبوته وكاد .. ولكنه استسلم في الأخير ووقع فريسة الأيام .

✡✡✡

إن هذا الكتاب مفيد جداً ، وقد جاء في أوانه ، وهو مجموعة وثائق عن حياة وايلد في السجن وبعده ، وهو لم يؤله وايلد ولم يغفر له نواقصه ، بل كان أشبه بالمحامي الذي يحاول أن يرفع غبناً أصاب موكله من جراء حكم أصدره قاض ضيق الأفق قليل الانسانية .

والذين يشوقهم أدب وايلد ويريدون معرفة المزيد عن حياته ، وبخاصة في السجن وبعده ، لا يستطيعون الاستغناء عن هذا الكتاب .

الانسان في المرآة

علاقة الانثروبولوجي بالحياة المعاصرة

ترجمة الدكتور شاكر مصطفى سليم

٥٩٦ صفحة ، مطبعة اسعد – بغداد

مع تشعب المعرفة تتوسع أطراف العلم وتمتد . وقد يزداد اطار العلم فيجتاز ما تراه العين الباصرة المجردة .

ومن الفجوات الصغيرة بين ملتقى أطراف هذه المعرفة تنشأ علوم متراصة قد يكون الطواف بينها من أمتع التجاريب الانسانية .

ومن هذه الفجوات الصغيرة تتشعب أطراف العلوم المتسلسلة من التاريخ القديم والحديث . والتاريخ هو العلم الذي يحكي ما جرى للبشرية من أحداث . أما الانسان كما هو أو كما يرى في المرآة ، فعلمه حديث طلي طريف سمي بعلم (الانثروبولوجي) ولم يستطع الباحثون أن يجردوا له لفظاً يصطلحون عليه حتى الآن . وحتى المختصون به ، كالدكتور شاكر مصطفى سليم ، لم يستقروا بعد على تسمية علمية له .

ومن بين تلك العلوم المتآخية ، كالاركيولوجي (علم التاريخ القديم والتنقيب) ، والاثنولوجي (علم الحضارة المقارن) ، والميثولوجي (علم

الأساطير) ، أو الترهيات كما يسميه الأستاذ عبدالله العلايلي . يقف علم الانثروبولوجي على قدميه الآن علماً راسخاً ، تشعب هو الآخر الى أقسام متعددة وأصبح من اللازم التخصص في أطرافها الممتدة ، لكي يمكن سد مسافة الخلف بينها .

وكل هذه العلوم الحديثة تستند في أصولها — كما أسلفنا — الى التاريخ ، وهو لا يزال بعد غير مستقر بين إخوانه العلوم الأصلية الأخرى ، فهناك من ينكر عليه مقامه هذا بين العلوم ويراه أجدر أن يكون ضمن الآداب والفنون .

ولا شك عندي في أن (الانثروبولوجي) الذي يمكن أن يقال عنه انه (علم الانسان كما هو ، أو كما يرى في المرآة) باعتبار أن التاريخ هو (علم الانسان كما كان في الماضي) مع أطرافه التي أسلفنا ذكرها ، علم طريف يأخذ بطرائق من الأدب والفن ، قد تكون من قبيل السياحة الفكرية اللذيذة التي يجول فيها العالم والأديب معاً دون أن يضايق أحدهما الآخر أو يعتدي عليه في مجال اختصاصه الواسع .

✡✡✡

وهذا العلم الطريف الذي أخذ الآن يستقر على قدمين ثابتتين ، لم تنشأ له في العربية المكتبة اللازمة له . وأغلب ما نشر عنه لا يعدو بعض الدراسات والمقالات الصحافية والترجمات الأولية لمبادئه .

ولعل هذا الكتاب هو الأول الذي يحتل مقامه اللائق في هذه المكتبة التي سوف تنشأ بكل تأكيد لهذا العلم المهم في العربية .

وهو بقلم أستاذ أمريكي متخصص نقله أستاذ عربي متخصص ، وقد تحرى كلاهما ، في الوضع والنقل معاً ، أن يكون لغير المتخصصين ، فجاء

كتاباً مستفيضاً في موضوعه ، طلياً في بحثه ، نافعاً للدارس والمتأدب والمطلع ، ولا غنى عنه للمكتبة المدرسية في هذا الفرع من العلوم .

ولو أردنا أن نجول في الكتاب جولة الفاحص لما تيسر للناقد والقارىء معاً الوقت الكافي لذلك . ولعل الأجدر أن يكون كلامنا فيه على الحواشي حسب ، وأن يتجه الى التقديم والتقدير ، أكثر منه الى الشرح والتأويل .

وللكتاب وناقله شأن عندي .

فقد تطلعت الى موضوع الكتاب تطلع طالب المعرفة حين كنت أعمل في حقل التاريخ القديم والتنقيب في دائرة اختصاصية ، كما عرفت ناقل الكتاب معرفة شخصية ، وتقديري له يصدر عن كونه أول عراقي تخصص في علم الانثروبولوجي ، وكما يقول الدكتور الأنصاري في تقديمه للكتاب عنه أنه « بفضل جهوده أدخل تدريس هـذا العلم لأول مرة في كلية الآداب ، ثم أصبح مادة ثابتة من مواد الدراسة في جامعة بغداد » .

وهذا في نظري جزء من التقدير الواجب لناقل الكتاب . أما كامل التقدير له عندي ، فهو أنه أديب قبل أن يكون عالماً ، وقد احتل مكانة الأديب بعلمه الآن ، كما احتل مكان العالم بأدبه ، ولا يمكن أن ننسى صولاته كأديب قريب من قلوب الجماهير .

✡✡✡

أما مؤلف الكتاب فهو عالم يستحق التقدير ، لأنه تصرف في تحضير كتابه تصرف العالم — وإن لم يخل من حس أدبي واضح في غضون الكتاب كله — ولم يتورع أن يكشف أمته على حقيقتها كلما تهيأ له ذلك .

فقد كان حرياً بالتقدير حقاً عند ما حلل ولع الأمريكيين الأثرياء بالحصول على (أنساب) عريقة يشترونها بالمال ، كما هو معروف عنهم .

ولم يخجل من عيوب أمته كلها ، بل لعله وقف موقف الكاشف المتعمد لكي يجعل مهمة العلاج يسيرة على المعالج .

ولعل ذلك هو السبب في ذيوع الكتاب نفسه وحصوله على الجوائز العلمية .

وفي رأيي أن نقل هـــذا الكتاب الى العربية مأثرة يجب أن يشكر عليها كل من عاون في إنجاز هذا العمل من جميع أطرافه .

ولابد من القول أن الشروح والتعليقات التي ملىء بها هذا الكتاب الضخم ، وفي آخر كل فصل من فصوله ، تكاد توازي أهمية الكتاب نفسه من حيث أنها مجموعة معلومات منسقة لا يمكن أن يستغنى عنها أي أحد ، حتى المتخصصون في بعض فروع هذا العلم .

وهي من مآثر المترجم نفسه ، لأن المؤلف لم يعن بوضع الشروح إلا أربعة منها ضاعت في ذلك الخضم الكبير من المعلومات .

وشيء آخر يمتاز به هـــذا الكتـاب وهو خلوه تقريباً من الأغلاط المطبعية واللغوية . إن فيه بعض الهنات التي أتمنى أن تزول في طبعته الثانية ، وهي لا تعد شيئاً بالقياس الى هذا السيل من الأخطاء المطبعية التي نشاهدها في مطبوعاتنا ، سواء منها الصحف أو الكتب أو المطبوعات الأخرى .

إن كتاب (الانسان في المرآة) يدخل دخولاً سهلاً في المكتبة العربية ويحتل مكانته بين المطبوعات التي سوف يقيض لها البقاء والتطور في عالمنـا الفكري .

وأرجو أن أكون موفقاً في التعبير اذا قلت ان هـذا الكتاب سوف يكون والداً لنسل يعتد به في مضمار العلم للجيل المقبل .

مرحباً بكوليت

⊙ أيام معه

⊙ ليلة واحدة

بقلم كوليت سهيل

اذا أمكن أن ينقسم الأدب العربي المعاصر قسمين ؛ أحدهما أدب مذكر ، والآخر أدب مؤنث ، فلا شك عندي أن (كوليت سهيل) هي الأديبة العربية الأولى في تاريخ الأدب العربي ، التي خطت خطوة الانتاج في أدبنا المعاصر للأدب المؤنث على مستوى رفيع قد لا يمكن أن تجتازه أديبة أخرى في هذا الجيل .

وقد يكون في هذا الكلام شيء من الاغراق أو عدم المسؤولية ، وبخاصة فيما يتعلق بمستقبل الانتاج الأدبي . ولكني ما زلت أعتقد به وأقول به معتمداً على ما تكون لدي من آراء خلال قراءة كتابيها ، أو على الأصح روايتيها (أيام معه) و (ليلة واحدة) ، وإن كنت لا أريد أن أضرب الأمثال في اقتطاع المقتبسات ، فقد يميل بنا الحديث الى ناحية تكنيكية أتركها لفرصة أخرى .

فالحقيقة أن هذه الكاتبة قد أبدعت في الأداء الأدبي واستطاعت بغير

قليل من المكنة التي نعتقدها في بعض كتابنا وأدبائنا الكبار ، أن تكتب بأسلوب عربي متقن ، ويلغة سهلة وفصيحة معاً ، قطعاً من الأدب الوجداني على شكل قصة ، كنا وما نزال نفتقر اليه في أدبنا العربي .

إنك تستطيع أن تستمع الى لهاث الأنثى بين سطور (أيام معه) ، ولكنك لن تجد هذه الأنثى اللذيذة مجرد متعة جسدية حسب ، بل لعلك ترى أنقى فكر نسوي يتسع له صدرنا في هذه الفترة من الزمن . ولعل بعض الصدور ، أو كثيراً منها ، قد ضاق به تواً .

إن الأدب العربي المعاصر يفتقر الى عنصر القصة والرواية افتقاراً شعر به الجيل الصاعد شعور المرارة . ولا شك أن هناك محاولات جدية من جانب هذا الجيل لسد الثغرة ، ولكن المهمة ليست بهذه السهولة . ومن هنا يرتفع تقديرنا للرواية التي نحن بصددها ولشخصية مؤلفتها الفاضلة . إنها رواية من الطراز الحديث تعتمد على التحليل النفسي والقدرة على الأداء قبل كل شيء ، ولا ينقصها قط القدرة على التعبير المؤنق ، ويكاد أسلوبها أن يكون في المقدمة . وهي في بعض التعابير تحتل الصدارة حتماً ، لأنها أول صوت نسوي من المستوى الأدبي الرفيع نسمع صداه في حياتنا المعاصرة .

لقد سمعنا صوت الرجل في رواية (سارة) للعقاد ، وظل صوت المرأة مختفياً حتى صدرت رواية (أيام معه) تسمعنا صوتها ، بل صوت الأنثى الدافىء المعطر بالعاطفة الجياشة . إنها كلمة النصف الأحلى في الأدب المعاصر . وفي ظني أنها ستظل تحتفظ بالصدارة الى أمد بعيد في المستقبل ، أي الى أن تنشأ (كوليت) أخرى تضارع أديبتنا في جميع امتيازاتها — على كثرتها — ثم تبزها من بعد ذلك .

المغنون البغداديون والمقام العراقي

للشيخ جلال الحنفى
١٢٠ صفحة ، مطبعة الحكومة

المقام العراقي تركة راقية أضاعها الوارثون لغفلتهم أو كادوا .

ولعله لقوته وأصالته لم يلحقه الضياع كلياً ، فقد كان قميناً أن يضيع لاصرار الورثة على نبذير الشركة مرة أو إغفالها عمداً أو جهلاً مرة أخرى .

ومن رأيي أن هذه الألحان الرائعة التي سميت أخيراً (بالمقام) العراقي ما هي إلا سمفونيات أبدعها موسيقاريون عظام ومغنون من الدرجات الأولى ، ثم أصابها التحجر فجمدت وأصبحت قوالب .

وذلك يفسر في نظري مبدأ الخلاف بين (المجددين) وغيرهم على حرية التصرف في هذه السمفونيات .

فالذين توارثوها لا يجدون في نفسهم الكفاية اللازمة لاحداث أي تغيير في تلك السمفونيات ، ويعتبرون أية محاولة من هذا القبيل إفساداً لها .

والمتحررون يرون أنها تركة لهم ، وأن من حقهم إجراء ما يقتضيه الزمن في بعضها من تطوير وتحسين .

ومن الحق أن يقال إن المدرسة الأخيرة — وعلى رأسها محمد القبنجي —

قد أثبتت أنها ذات رأي قابل للتطبيق . فقد استطاع (القبنجي) أن يضيف الى (المقامات) جانباً ليس بالقليل . وبمعنى آخر ، استطاع أن يؤلف (سمفونيات) ليس قليلاً أثرها ، دخلت في الأصول واحتلت مكانها .

ولو نظر الى القضية من هذا الجانب لرأينا أننا نبخس (القبنجي) حقه ، وأننا بدلاً من أن نعطيه ما يستحق من تقدير وتمجيد ، نلعن مساهمته في تطوير هذا الفن العظيم ، ونقف في سبيل المزيد من إبداعاته .

والواقع أن الموسيقى والغناء اذا كانا من مظاهر الحضارة الراقية ، فمن حق العرب أن يفخروا بأنهم من أوائل من عرفوا الحضارة على أرقى أشكالها .

فقد مرت عصور ذهبية على أمة العرب كانوا فيها على قمة ما وصلت اليه الانسانية في هذا المضمار .

فقد كان (المغني) و (الموسيقي) شخصيات محترمة مرموقة في المجتمع العربي . وكان أحدهم لا يعنيه المال ، لأنه موفور لديه ، ولا الجاه ، لأنه وجيه . تماماً كما هي الحال الآن في المجتمعات الغربية الراقية .

لقد خلد التاريخ شخصيات كبيرة في جميع المضامير ، ولم يكن قليلاً ما خلده من أسماء المغنين والموسيقاريين في عصور العرب الذهبية .

وإسحاق واحد من عشرات ، بل عشرات المئات على مدى طويل من السنين الملاحقة .

ونحن نعيش الآن في عصر (القبنجي) فهل يدري أحدنا مثلاً ماذا كان يحصل لو أنه اعتمد في عيشه على فنه هذا ؟

لعله كان يصبح صورة أخرى من المرحوم (حسن خيوكة) مثلاً !

وهل يدري أحد ماذا كان يحدث لو أن (القبنجي) لم يسهم في هذا الفن العظيم لسبب من الأسباب ؟

إني أعتقد جازماً أن كبوة كبرى كانت ستحصل لو أن المقام العراقي لم يتلقفه محمد القبنجي في ذلك الأوان .

واقترح أن تؤلف لجنة خبيرة تستقي أصول هذا الفن من (القبنجي) وتسجلها على ترتيبها ، فان نعمة التسجيل خير ما يمكن أن نخدم به مقاماتنا هذه اذا أردنا لها الحياة .

ومثل هذا العمل يستحق كل ما يقتضيه من جهد ومال .. ويزيد .

أما المدرسة التالية فهي — في رأيي — تزدهر بمرور الأيام . في (يوسف عمر) إمكانية واضحة .. ولو تحققت فكرة إنشاء اللجنة الفنية المطلوبة ، فانها ستجد في (يوسف عمر) مادة لائقة ، وفي الامكان بعث (المقام) واقامة قواعده بشكل علمي منسق لو أن الجهود تضافرت لهذا الغرض .

أما أن هناك اكثرية تتطلع الى إحياء المقام العراقي ، فذلك أمر لا شك فيه لدي ، وأكاد أجزم أنه سينال (العالمية) في البلاد العربية ويحتل مكانته فيها إن لقي بعض ما يستحق من عناية ودرس وإعداد .

ولا بد من القول بأن إحياء المقام العراقي يقلل من الحاجة الى (التلحين) بمعناه الحالي ، لأن ما وصلت اليه هذه المقامات من الدرجات الموسيقية يغني عن اللجوء الى التلحين أو يقلل منه الى حد كبير .

وكتابنا الذي نبحث فيه ليس من قبيل كتب التعريف والايضاح ، وإنما هو من قبيل كتب التسجيل والفهرسة والتثبيت .

ولو كتب له أن يعاد طبعه ، فاني أقترح على المؤلف أن يتوسع في أبواب التعريف جهد طاقته . فان قارئاً غير عراقي يحتاج الى شروح كثيرة في نصوص الكتاب ، وبخاصة في معاني الألفاظ الأعجمية .

فان (الميانة) مثلاً تحتاج الى شرح كثير من الناحية الموضوعية ، كما ان (بدوات) والمقامات وأكثرها أعجمي ، حري بأن يعرب أو يترجم على الأقل .

ولا شك قط من فائدة هـذا الكتاب وأمثاله ، بل لعلنا في حاجة الى المزيد من هـــذه الدراسات ومن المؤلف الفاضل ومن غيره ، وإن كنت أعتقد أنه خير من يتولى العناية والابانة من سواه ، في هذا المضمار .

ولو زيدت عليه الصور ـــ كلما أمكن ذلك ـــ وبخاصة صور الحفلات القديمة وملابس المغنين والسامعين وغير ذلك من النوادر الاثنولوجية ، فان مزية أمثال الكتب ستتضاعف بطبيعة الحال .

ولا بد من القول ان هذا الكتاب من خير المطبوعات العراقية الأخيرة شكلاً وموضوعاً ، وان صاحبه ليشكر على جهوده ويطلب اليه المزيد .

عصر العظمة الفردية

لقد ظهرت عظمة (كندي) بعد اغتياله . وبدا للعيان ما للعظمة الفردية في هذا العصر من أهمية ، وإن كان هو العصر الذي حمل لواء تحطيم الفرد والعظمة الفردية بين العصور .

وفي صفحات التاريخ القديم والحديث صور كثيرة عن عصور العظمة أتلفتها وحورتها دراسات العصر الحديث القائمة على سلخ عنصر العظمة الفردية ، وحالت دونها موجة الاتجاه ضد الفرد وتأليه الجماعية .

والواقع أن روح التأليه للعظمة الفردية في الماضي كان قائماً على أسس غير صحيحة . فقد تدخلت النوازع الفردية نفسها من جهة ، والقبليات والعنعنات الطائفية الرعناء من الجهة الأخرى ، فأفسدت الصورة الصحيحة للعظمة الفردية ، لأنها أدخلت في ذلك الطوق كثيراً مما هو ليس بعظيم — اذا أردنا الدقة في التعبير — وكثيراً مما هو ليس جديراً بالتقدير إطلاقاً ، وذلك ارضاء لأقل غرائز الانسان حقاً في الارضاء من قبل أناس باعوا ذكاءهم في سبيل المال فسخروا فنهم في تخليد من لا يستحقون التخليد في عالم الفن والأدب .

ومن دور (الرواية) في تاريخ الأدب العربي أكثر من مثل ودليل على ذلك .

غير أن الأمس بقي صحيحاً .

فالفرد هو العنصر الأساسي في العظمة الفردية بلا شك . وأولئك الذين يدينون بعكس هـــذه الفكرة ينسون دائماً أنهم يدينون الى بعض الأفراد بالذات لتأكيد فلسفتهم هذه والذود عنها .

وليس من قبيل المصادفات أن تنشأ الخلافات المذهبية بين هؤلاء المفكرين أنفسهم فيما له علاقة بلب فلسفتهم هـــذه ، ويكون الدافع الحقيقي لهذه الخلافات جبلات بعض الأفراد واختلاف نزعاتهم الفردية ، وبالتالي الفروق الحساسة بينهم كأفراد لا كممثلين للآراء التي يعتنقونها .

لقد دانت الأفكار والآراء للأفراد طيلة تاريخ الفكر الانساني ، سواء قنع أصحاب الرأي المناقض بذلك أم لم يقنعوا .

هـــذه هي الفلسفة التي تقوم عليها كتابات (جون جنتر) المعروف باستقصاءاته ودراساته عن الشرق والغرب . ولم يترك فرصة لم يستفد منها عند تطرقه الى هذه الفلسفة .

فهو يؤكد أن الفرد هو الأس في الحوادث التاريخية في جميع العصور . وما يحيط بالهالة قابل للنقص أو الزيادة أو غير ذلك من العوارض الزمنية الموقوتة .

ولا يغني في كل هذا أن نعود الى ما يقول البعض من أن التاريخ يسير غير مخير ، وأن ما يقوم به الأفراد من أدوار عبر هذا التاريخ ، يكون على أساس الجبر لا الاختيار .

فلو كانت أسسه قدرية أو جبرية ، فليس ذلك بقادر على أن يزيل من الوجود منزلة الأفراد في خلق الحوادث أو في تكوين التاريخ كما يشتهون . فالرد على هـذا الرأي ينطوي ضمن الحقيقة الملموسة التي يستطيع المرء أن يستقرئها من حوادث التاريخ . فقد استطاع أفراد بعينهم في فترات معينة من تاريخ البشرية أن يحرفوا التاريخ وحوادثه حسب رغباتهم ، رغم أن جميع النواميس كانت تقضي بأن تسير تلك الحوادث في جهـة أخرى ، وما أمر نابليون ببعيد عن هذا ، وكذلك غيره ممن صمدوا للحوادث وأجبروا التاريخ على أن يسير حسب هواهم وآخرهم ستالين وما ترك من جدل حول عبارة الشخصية .

✡✡✡

ولم يخل عصر واحـد من أدلة ثابتة على جوهرية الدور الذي يقوم به الأفراد الممتازون في خلق الحوادث وتطويرها .

ولكن زمننا الحاضر أغزر جميع العصور بالأمثلة الحية التي شهدنا بعضها وما زلنا في آثار بعضها الأخرى .

ولا تكف الصيحات في جميع أرجاء الدنيا مطالبة باشغال أدوار البطولة بعد تلك الموجة التحررية التي تميز بها النصف الثاني من القرن العشرين .

ولعل (كـندي) أحد هذه الأمثلة .

فقـد وصفته الصحف الانـكليزية ـــ بعـد موته طبعاً ـــ بأنه الزعيم المعترف به للعالم الغربي ، وما كان ذلك ليكون سهلاً لو أنه لم يقض بهذه الصورة الفاجعة التي كملت دوره البطولي .

ومن الأخبـار الأدبية التي مرت بنا أن الـكاتب الأمريكي المار ذكره (جون جنتر) يقوم باعداد سيرة مطولة لحياة (كـندي) .

ولا ريب عندي أنها ستكون أشبه باطروحة يعدها ذلك المؤلف لتركيز فلسفته التي مررنا بها آنفاً .

وستكون العبرة دوماً بما يسهم به الفرد للمجتمع وللعالم الانساني بأسره ، مما يؤكد العظمة الفردية على مر العصور .

الخائبون !

إن أولئك الذين يقسمون الحياة الى قسمين : ملهاة ، ومأساة ، قصيرو النظر ؛ فالحيـاة أكبر من هـذين ، وهي تحويهما لأنها أوسع من أن تحـد بحالتين فقط ، وإن كانت هاتان الحالتان تمثلان طرفي نقيض .

وحيث تنتهي الملهاة تبدأ المأساة في حياة كل فرد أو مجموع ، كما أن نهاية المأساة قد تكون بداية لملهاة جديدة ... وهكذا

والناجحون في الحيـاة هم أناس رأوا منها جانباً واحـداً فقط . وبينهم وبين أن يدركوا معنى الحياة بصورة شاملة عبور الجانب الآخر ..

ولا يضير هذه القاعدة أن يعيش في الدنيـا أناس جربوا النجاح حتى آخر لحظة من حياتهم ، أو أن يكون هناك آخرون لم يصادفوا غير الفشل . فالواقع أن هؤلاء هم الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها .

ويجب أن نفسر ما نرمي إليه من النجاح أو الفشل في الحياة الفردية ، فقد يفهم كثير من الناس من النجاح جانباً واحداً مثلاً ، وقد يكون هـذا الجانب هو الثروة عند الفقراء ، أو الصحة عند المعلولين ، أو سواء الخلقة عند المشوهين .

ولكن النجـاح الذي نرمي إليه هو قدرة الفرد أو المجموع على بلوغ مثل أعلى لا يتقيد بحاجات الفرد الزمنية أو المـادية ، وينطوي على فـكرة سامية وهدف مقصود .

والخائبون في هذا الهدف ، مع استمرار كدهم ، هم الذين يستحقون العناية ، لأنهم بذلوا جهدهم كله ، وما زالوا يبذلون ...

✡✡✡

قيل إن غادة جميلة لم يأسر قلبها حب ، ولم تجرب بعد زكامه ، اختصم حولها رجلان كان كل واحد منهما يظهر لها أقصى غاية الحب والتضحية ... حارت في أمرها ، ولم تجد في قلبها هوى معيناً نحو أحدهما على التخصيص فصممت على أمر !

قالت لهما : إنها لا تشعر بميل قطعي الى أحدهما ، ولكنها ستهب نفسها للفائز منهما في صراع ينشب بين الاثنين ، يقرر الغلبة لواحد منهما !

واصطرع العاشقان وتمت العملية بفوز الفائز ..!

والتفت هذا مفتوح الذراعين ليحتضن أمنيته في الحياة ... فما راعه إلا أن رآها منكبة على العاشق المصروع . تضمد له أوجاعه ، وتهب له قلبها !

فلما سئلت : لماذا غيرت رأيها ؟ أجابت بأنها لا تستطيع إلا أن تحترم ذلك الذي أفنى كل جهده في سبيل الحصول عليها ، ولم يبق لديه بعد ذلك شيء يغنيه !

وهـذه المرأة سليمة الشعور ، قويمة العاطفة ، وهي خير مثال يضرب لفكرة تقدير (البطل الخائب) ، وإن كان هو في هـــذا المثال قد خرق القاعدة فنال ما تمناه بسهولة .

والنجاح السهل الذي يخيل لبعض الناس أنه ميزة يمتاز بها بعض من

حبتهم الطبيعة ما يسمونه (الحظ) ، قد شوه الواقع تشويهاً ، وأصبح من جملة الشرور البشرية التي يكابد منها كل فرد في كل مجموع !

✡✡✡

النجاح السهل هو ما يريده كل الناس في كل الأزمان ، لأنه خير اختصار للمجهود الشاق الذي ينبغي على الحي أن يبذله في سبيل حياته !

وأسطورة (الحظ) هي الحلم الذي يطرق أخيلة الطامحين بعد كل كابوس !

وليس معنى هذا أن ليس هناك (حظ) في الدنيا ، ففيها كثير من الحظوظ والمحظوظين ، ولكنهم — هنا أيضاً — القلة التي تثبت القاعدة ولا تنفيها .

ومن هذه الأسطورة نشأت شرور (الحياة الحالمة) التي تبدأ بالمراهقة ، وقد تنتهي بالسجن والعذاب ، أو بشفاء المسؤوليات التي لا يستطيع الفرد أن يضطلع بها .

والحالمون هم أولئك الناس الذين يريدون أن يختصروا الطريق الى غاية معينة لكي ينصرفوا — من بعدها — الى المثل الأعلى الذي يسعون إليه ، فلا تنتهي حياتهم قبل أن يقطعوا الطريق ، وتلتاث أفكارهم في الصراع على الآونة الحاضرة ، ويصبح المستقبل عندهم أبعد من الماضي .

والمقامرون هم خير مثال لذوي الحياة الحالمة ، إذ كان مثلهم الأعلى هو الثروة ! والموسوسون هم خير مثال لأولئك الذين يريدون السعادة الطهرية من أقرب طريق !

أما شر ما يمكن أن يصنعه (الحالم) في هذه الدنيا ، فهو بعد أن يتحقق حلمه الأول .

فليست هناك قوة تقنع الانسان بعد تحقق أول حلم له بأنه غير موهوب وذي رسالة ينبغي عليه أن يؤديها .

ومن هنا يبدأ النزاع الأبدي بين المنطق والواقع ، ويشتد الصراع بين قوة قوية دافعة ، وبين واقع واقف كالجدار .

وتحل النكبة عند اختراق أول جدار ، لأنه يفك أسر جميع ما في الفرد من قوات مخزونة لكي يندفع الى الأمام .

ولا تنتهي حياة كهذه إلا بكارثة ، وأهون الكوارث في هذا المضمار هي الكارثة التي تقتصر على الشخص الفرد نفسه ، ولا يشترك معه آخرون .

وما هذه الحرب التي نكابد شرورها إلا نتيجة كابوس طويل لرجل حالم تحقق حلمه الأول !

☼☼☼

الخيبة مرحلة من مراحل الحياة يجب أن يتخطاها الفرد لكي يكون ذا تجربة .

ولا يضير هذه القاعدة قول (أوسكار وايلد) إن « التجربة هي اللفظة التي اصطلح الناس على تسمية أخطائهم بها » .

فالواقع أن الخطأ كالخطيئة ، هو الجانب الآخر الذي يقاس به الصواب والفضيلة . وكما أن الخطيئة عمل إيجابي قائم بذاته ، فكذلك الفضيلة ، وكل فضيلة مبنية على السلب ، فهي شق ينبغي تكملته .

وكل نجاح سهل يحصل عليه الانسان ، فهو الشق الناقص من حياته ، وينبغي تكملته .

ومن لم يصطرع في حياته تهشم عند أول صراع بعد نجاحه .

وليس انتحار الموسرين والأصحاء والموهوبين إلا لأنهم حازوا أكبر

نجاح بأقل خذلان ، ولأنهم اصطدموا بالواقع لأول مرة في حياتهم ، جاءت الرجة أقوى مما يتحملون .

ولهـــذا فلن يكون مما يضير الانسان الكامل الانسانية أن يكون (خائباً) !

الثقافة الأخرى
ثقافة الغاضبين !

لو أن هذه الحركة اختصت بقطر من الأقطار ، أو ببقعة من الأرض ، لانصرف أمرها الى ما تعارفت عليه الحركات الفكرية في أحوال مضت ، كأن تكون دلالة على ملال ، أو نتيجة لكلال ، ربما طواه الزمن من ما يطويه من حوادث .

ولكن هـذا التيار الفكري الذي امتد من أمريكا وانكلترة وفرنسا واليابان ، حتى رأى بعض من ضمه من مختلف الجنسيات أنهم يمثلون عائلة واحدة ، فاجتمعوا اجتماعاً (عائلياً) في لندن ، واضطرت مجلة ضخمة الأثر شكلاً وموضوعاً ، كمجلة (تايم) الأمريكية ، أن ترسل في سبيل تعقيب هذه الحركة حول الكرة الأرضية مندوباً خاصاً لكي يسجلها على صفحات تلك المجلة .. نقول إن شيئاً كهذا يجب أن لا نغفله أو أن نتغاضى عنه ، كما نتغاضى عن الحركات الطارئة ، أو التيارات المصطنعة ، التي يفتعلها بعض من يسعون وراء الشهرة أو الهرجلة .

فالظاهر أن طبيعة (الغضب) في دنيا الفكر قد انتقلت منذ سنوات الى

مرحلة (التدمير) والنسخ . وأن الرغبة في الهـــدم العشوائي وجدت لها فلاسـفة يؤمنون بأن الفن قد (مات) ، وأن خداع الجماهير بهـذا النتـاج الموجود إنما هو (تعميـة) للفكر ، وبالتالي كفر وتجديف يجب وقفه عن طريق العنف .

ولو قال بهـذه الفكرة رجال من وسط غير الوسط الفكري لما كان في ذلك ما يلفت النظر ، فطالما تعرضت الأفكار والآراء الى النقض السلبي من جانب من لا يؤمنون برسالة الثقافة . ولكن هـــذه الحركة الفـكرية تضم فنانين وكـتاباً وشعراء مشهوداً لهم بالتفوق في كثير من المجالات .

ففي أمريكا يقوم الشاعر (ايد ساتدرز) بتزعم فئـة من تلك الفئـات التي تعيش (تحت الأرض) فكرياً وعملياً ، فأصدرت مجلة لا يمكن ذكر اسمها إلا بالتصدي للقانون ، وأخذ يدعو الى الهـدم المنـسق لكل ما يقوم عليه المجتمع من أمثلة ، وفي مقدمته الهروب من واقعه عن طريق التخدير ، وكان ذلك الهروب من أسباب التجلي الصوفي ، والارتفاع نحو (طوبائيـة) من نوع جديد .

أما الأديب الانكليزي (الكساندر تروكچي) مؤلف رواية (كتاب قابيل) فانه يهلل لهذه الدعوات مفلسفاً ويقول « إننا جئنا في الوقت المناسب ، بل في أنسب الأوقات كلها » . فالمجتمع الحالي يسـير نحو التردي ، متخلياً عن دور السـيطرة الذي كان يحس به في الماضي . وتجـد التذمر من هـــذا المجتمع في مختلف طبقاته الوضعية ، والناس لا يعرفون كيف ينسقون حياتهم مع ما يقبل عليه المجتمع من تغيير . ولذلك فقد لقيت دعوة (سيغما) — وهي دعوته للهدم مستعملاً آخر حروف الهجاء اليونانية كدلالة خاصة — أنصاراً لها في كل أرجاء الأرض .

وليست هـذه الدعوة بنت اليوم . فقـد بدأها (تروكچي) قبل أربع سنوات ، وهي في تقدم مستمر .

أما (جان جاك ليبل) الفرنسي فانه فنان مثير ، ظل يجمع بين أطراف الدنيا لكي يجمع رجال فكر من عشرة أقطـار تدور حول الأرض ، ليقيم (حفلاً عائلياً) على حـد تعبيره ، ولكي يجددوا العهـد على القيـام بثورة ضد المجتمع القائم . وليست مظاهر هـــذه الثورة خيالية أو ظنية ، بل هي تمارس طقوساً خاصة ، تأخذ بهـا بالهدم الفعلي لكثير من أدوات العصر الحالي ، فقـد حطموا (بيـانو) من الطراز الفكتوري للتدليل على سحق ما يعنيه ذلك من معاني الالتزام بالماضي ، وأقاموا حفـــلة موسيقية لا علاقة لها بالموسـيقى قط ، بل كانت مجرد صخب منبعث من طـــرق بالأيدي والأرجل ، وفتح سـت راديوات على ست محطـات مختلفـة بأقصى الصوت في وقت واحد !

وقد يكون ذلك كله من قبيل ما يمكن احتماله بشكل من الأشكال . ولكن (جماعة الصفر) اليابانية اشتطت في دعوتها التي تقول ان الدعارة هي وسيلة إدراك الحياة والحقيقـة . ويقول زعيمها (كاتو) ألفيلســـوف الياباني ، ومعه بعض الفنـانين المشهورين في بلادهم « إن طبيعـة الأشيـاء لا يمكن معرفتها إلا عن طريق أولئك الذين يركزون حياتهم على ما ندعوه بالعامية اذا ما مر عليها زمن طويل .. بالسنوات ! »

وأدهى من ذلك كله أن (موهل) الألماني جرب طقوساً بشـعة أمام مراســـل (لايف) في اجتماع عائلي مع إحدى المؤمنات بهذه الفلسـفة الخرقاء ، بعد أن مددت على الأرض وألقيت عليها البيرة والحليب ونفايات الطعام المعلوس ..!

قد تكون هذه الدعوات على اختلافها — وهي تسمى على وجه الشمول دعوات عشوائية الحياة وأحداثها — ذات دلالة توحي بالتبرم من المجتمع القائم من جانب أولئك الذين يعانون فجواته . وقد تكون الناحية الجديدة فيها — وهي تقوم على ردة فكرية يفخر أصحابها بتسميتها (وندالية) — مبعث انتشار لها في زوايا الغرب المنهك ، تغلفها قشور سفسطائية يرددها أساطين هذه الحركات تبعاً لما يكتبونه ويقرأونه ، وهو ليس بقليل ، وربما اتسعت الى أكثر مما لفت نظر مجلة (لايف) الأمريكية .

أقول ربما كان لهذه الحركات العنيفة ردود فعل في المجتمع الغربي ، وقد يدخل فيها رجال فكر كبار يميلون الى النقمة على المجتمع الحاضر ، ولكن مستقبلها في الشرق سيكون محدوداً ، بل أكاد أجزم أنه لا مستقبل لها من ناحية الفكر والمبدأ فيه .

إن هذه العشوائية الفكرية قد استنفدت موجاتها السابقة أغراضها ، كما يقول الساسة والدبلوماسيون . وقد عصمت الصحراء رجالها في مثل هذا التمزق في الماضي ، عندما رحل الصحراويون لأول مرة الى المدن وتفسخوا فيها ردحاً من الزمن ، ثم ذهبت تلك الموجات المنحلة بعد أن أصبحت مستهلكة كلها ، وعاد الشرق يتكىء من جديد الى تركته الفكرية الكبيرة التي حالت دون أن يتفسخ فكره تدريجياً ، وإن كان قد بقي في ضلالة الجهل — قياساً على تقدم العلوم في الغرب — مدة طويلة ، وما يزال .

إن من اللازم أن يراقب المرء هذه الردات الفكرية التي تنبعث هنا وهناك في العالم العربي ، لأن مما لا شك فيه أنها سوف تردنا كما وردتنا أمثال لها . ومن الواجب أن نفهمها على حقيقتها لكي لا يضيع علينا موضع الاعتصام أمام ذلك التفكك ، ولكي لا تكون جدتها سبباً لذيوعها بيننا .

هذا العبقري الخالد

مات العقاد !

لقـد سكن الى الأبد ذلك القلب الخفاق والعقل الجبار بعد حياة كد مستمر جاوز نصف القرن من الانتاج الفكري العالي .

لقد خسرت العربية أكبر شعرائها ونقادها وأدبائها مرة واحدة . وليس من قبيل الاحتمال السهل أن تعوض أياً من هؤلاء في أكثر من واحد ممن يستطيعون أن يملأوا بعض الفراغ الذي تركه هذا المارد الفكري .

كان إلةقاد بالنسبة لي رفيق عمر ورفيق فكر . وفي المرات العديدة التي اختلفت فيها معه ، كان يضاعفها لي أضعافاً من دفاق عقلي عميق تام اللذة .

لقد كان شعره غذاء روحي ، ونقده غذاء عقلي ، وفلسفته أشهى فواكه الحيـاة .

كان الرجل الأسطورة دليلاً لا يرد على أن الانسان يستطبع أن يرتفع بعقله وروحه الى أعلى الدرجات ،

ولم يكن مديناً في مجده الأديبي الذي بلغه الى دراسة أكاديمية أو ميراث دنيوي ، بل لم يكن الطريق ممهداً له لكي يسير فيه بلا عقبات . ومع ذلك

فقد استطاع أن يبني ذلك المجد العظيم لبنة لبنة وبكل عناء وجهد . وفارق الحياة مكدوداً تعباً بعد أن خلف وراءه تركة فكرية من أرقى التركات الانسانية .

لقد أعطى ولم يأخذ . وذلك شأن أمثاله من الخالدين ،

سيقول التاريخ الأدبي عنه الكثير . ولكن القليل من ذلك الكثير هو ما سوف يقال عن شعره .

فقد تنطع المتنطعون بانه كاتب وليس بشاعر . وأنا أعتقد أنه لو لم يكن ذلك الشاعر لما أصبح ذلك الكاتب العظيم .

ستظل ترجمة (شيطان) درة في الشعر العربي على اختلاف عصوره ، وسوف تكون موضع دراسات أدبية طويلة .

وكذلك فلسفته . فلو لم يصقلها ذلك الحس الرقيق لما تشذبت وأصبحت رائقة وسائغة للملايين .

إن آراءه الجدلية الكثيرة كانت أكثر من أن يستطيع عصره أن يماحك فيها . فذهب هو وترك وراءه خزينة من أفكار للأخذ والرد بعد أن كسب الجولة في جميع ما كتب .

ولو أن متنبئاً تنبأ بالعقاد وبالغ .. لما وصل الى حقيقة هذا العبقري الخالد .

فلتصعد روحه العظيمة الى أعلى عليين .

بعد العقاد

في الكثير الذي كتب عن العقاد ، كثير ما يكشف القناع عن قوة شخصية هذا الأديب العظيم قبل أن يكشف عن شخصيات الكاتبين .

فقد تجرأت بعض الصحف وبعض ذوي الأقلام على نعوت للعقاد لا يكفل لها ما وراءها من نزعات ، قوة الخلود مع خلود العقاد نفسه ، فلم تكن إلا تنفيساً عن كربة أزالتها وفاته ، أو كشفاً عن خلق كان بينه وبين الظهور جدار سميك أقامته شخصية العقاد .

فقالت مجلة الأسبوع العربي مثلاً ، انه كان سليطاً ... كما قال بعض من كتبوا عنه ، انه كان حقوداً ولئيماً ، وما الى ذلك من نعوت لا يجملها موقف الحزن فيه ، ولا يرفع قدر قائليها أنهم قالوها ... فقد كان عليهم أن يقولوها عنه وهو حي حتى وإن كان — كما كان في أواخر أيامه — طريح فراش الموت .

لقد كان العقاد شخصية أدبية أكثر مما كان شخصاً أديباً . فهو يمثل مدرسة كاملة ، سرى عليها ما يسري على المدارس الفكرية من نمو وازدهار أعقبه في بعض الأحيان جفاف وخفوت .. وكان عالماً بذاته متكامل الأجزاء يستدعي الدراسة المستفيضة . ولا مبالغة في القول بأنه سيكون موضع عناية

الجيل الأدبي المقبل ، ومصدر ثراء فكري له ، سوف يكون الشغل الشاغل لمؤرخ الحركة الأدبية في هذه الفترة .

وعظمة العقاد تكمن في أنه كان ذروة في أكثر من مجال واحد . فقد كان كاتباً عظيماً وشاعراً عظيماً في وقت واحد . أما من يقول من المتفيهقين بأنه كاتب (معقد) فقد جرفه وفرة انتاج العقاد في النشر وفي مجال الفكر والعقيدة . فلم يعد يقولها أحد بعد هذه الغزارة في الانتاج لملايين القراء ... وماتت الفيهقة !

وأود أن أؤكد أنني لا أحب في العقاد مزية أكثر من حبي لما اصطلح الكثيرون على انتقاده بسببها .. وأعني بذلك عنفه وكبرياءه ، فهما قوام شخصيته . وقد أعجبني ما قاله الأستاذ عباس خضر عنه في مجلة (الرسالة) المصرية ، فقد قال « إنه كان (رجل موقف) من الطراز الأول ، بل من طراز فريد . لم يداهن ولم يمالىء رغبة أو رهبة . نشأ فقيراً مكافحاً ، واستعصت كبرياؤه على ذل الحاجة . عف عن النعيم الذليل ، وصبر على الشظف الغزير .. لم يهن ولم يسلم الراية حتى أسلم الروح . »

✡✡✡

والفراغ الذي تركه العقاد بموته لا يمكن أن يملأ ، وبخاصة في عالم الشعر .

فقد ظل هذا الشاعر المارد ينظم منذ نصف قرن كامل نوعاً من الشعر لم تعهده العربية ، كما بقي يدافع عن مدرسته الشعرية طوال ذلك الزمن . واستطاع أن يرسخ قدمه في عالم الفكر العربي ، فخلق ما سماه بشعر الفكر ، وهو الشعر الذي نحن أحوج ما نكون اليه في هذه المرحلة من تاريخ حياتنا الأدبية .

وكما تقتلع جذور الشجر الميت من الأرض ، اقتلع العقاد أهمية شعر المناسبات لكي يضع مكانه شعر (الفكر) ويزيل التزاويق والصنعة الباردة التي دان لها الشعر العربي قروناً طويلة بهيأته السابقة .

ولابد لمثل هذه العملية القاسية أن تترك أثرها في الأرض وفي يد من يقتلع الجذور !

وقد دميت يد العقاد أكثر من مرة وهو يقوم بعمله الجبار هذا طيلة نصف قرن كامل .

ولكن مثل هذا الخلق يحتاج الى أكثر من قرن واحد . وقد سلخ العقاد نصف قرن في جهاده هذا وعلى سواه أن يستمروا في عملية الخلق والابداع لكي ترسخ هذه المدرسة الفكرية في حياتنا الأدبية .

ومن حقي أن أشك كثيراً في أن يكون هناك من يملأ فراغ العقاد في هذا المجال ، حتى من بين أعضاء مدرسته هذه .

✡✡✡

والشيء الوحيد الذي أشعر أنه ذهب خسارة كبيرة في حياة العقاد ، هو تريثه في الاسهام في عالم القصة والرواية منذ البداية ، واختصاره على (سارة) فقط .

وبالرغم من أن قصة (سارة) ستظل محتفظة بمقامها بين مخلدات العربية في مضمار الرواية والقصة . فقد كان من الأفضل أن تليها أخوات لها كثيرات ، وأن يتجلى قلم العقاد في عالم التحليل النفسي عن طريق هذا الفرع من الأدب .

فالواقع أن عالم القصة عالم فسيح بالنسبة لقلم كقلم العقاد ، ولكن هذه الخسارة ذهبت ولا فائدة في الكلام المعاد .

أما عالم النقد فلا يختلف اثنان على أن الركن الذي انهد بخلوه من العقاد لا يمكن أن يقام .

ولابد لي من القول هنا — وإن كنت أشعر بضيق مما أقول — بأن شراسة العقاد في النقد كانت من جملة ما أعطي النقد الأدبي قوة بقاء وفعالية . وان الذين يلومونه على تلك الشدة كانوا في الحقيقة يريدون منه أن لا يكون ذلك الناقد العظيم الذي كان .

إن شدة وطء النقد الأدبي — اذا كانت مستندة الى وفرة من العلم والادراك ورهافة الحس — تؤتي ثمرة كبرى في مضمار النقد ، خيراً مما تؤتيه خفة الوطء . والذين يقولون بغير ذلك يريدون أن يكسبوا على حساب الأدب والنقد ما يدخل في باب المداهنة والتدجيل ، ولا يفيد منه أي طرف حتى الأطراف المنقودة .

ويا طالما قضينا الساعات الطويلة ونحن نتمتع بلذة قراءة الأدب النقدي الشديد الوطأة من مدرسة العقاد . وكان شريكه المازني لا يقل عنه أثراً .. وهي لذة فقدناها بفقد الناقدين العظيمين معاً .

وما أحوجنا الآن الى هذه المدرسة !

✡✡✡

إن العالم الأدبي قد خلا من العقاد في أحوج الأوقات اليه والى مدرسته .

وبعد العقاد ستكون فترة جمود لابد منها الى أن تنشىء العربية عقاداً آخر واسع الشخصية الأدبية ذات ظلال .

وفي رأيي أن التفاؤل في هذا المضمار لن يجدي . فيجب أن نعترف بأن عقاداً آخر لن يكون في جيلنا هذا .

أما الحكم على الأجيال المقبلة ، فهو هراء لا يريد أحد أن يتورط فيه ، وأنا آخر المتورطين .

وكلما نتمناه أن يكون اعتمادنا على رقي الانسانية ورقي الانسان ، فيكون في الأمل فسحة الرجاء ، لكي يستوعب جيلنا والجيل الذي يليه كل جوانب العقاد .

بعد الزهاوي

أصبح (الزهاوي) الآن في رحمة التاريخ الذي لا يرحم ! ودخلت (كان) الخالدة عليه ، فليس يشار اليه إلا بها . وذهب في عالم الشعر والخيال ، بعد أن كان بشعره مرآة للحوادث المهمة في حياته وحياة عصره .

ولقد كان في حياته — وما أشد وقع (كان) هذه ! — يتمتع بعطف شديد من طبقة الأدباء ، بقدر ما كان مغضوباً عليه من الطبقات المتعصبة . ولقد يكون من المناسب أن أذكر الآن أنني كنت ممن نقدوا شعر الزهاوي بشدة ، وقد ساقني الى ذلك وقتئذ اختلاف عصري عن عصره بطبيعة الحال ، وبعد شقة التفاهم بين عاطفة شيخ من أدباء القرن التاسع عشر وميول شاب في القرن العشرين لم يطمئنه ويرضه أدب لا يعبر عن ميوله ؛ وكنت في ذلك الحين أترقب التشجيعين المعنوي والأدبي بنقدي ذاك ، فما راعني إلآ ذلك اللوم والعتاب الذي فجأني من جماعة كثيرين كانوا مجمعين على أحقية النقد ، غير أن ذلك لم يمنعهم من أن يقابلوه بشيء غير قليل من التذمر ! حتى لقد بلغني أن أحد من كان بيدهم الأمر حينئذ أشار الى رئيس تحرير الجريدة التي كنت أشتغل بها أن يطلب مني الكف عن نقد الزهاوي !

وكنت في ذلك الوقت أشتغل بالصحافة ، فلم يسعني إلا النزول على ذلك الطلب ، وكففت عن الكتابة في تلك الجريدة ، غير أني تابعت نقده في غيرها .

***

لقد أوخذ (الزهاوي) على بعض عقائد له جاهر بها في حياته ، وعرف له فيها كثير من الاغراق والتطرف ، كما أنه كان يجد على تطرفه هذا كثيراً من المشجعين . وفي رأيي أن المؤرخ الذي سيكتب تاريخ حياة (الزهاوي) جدير به أن ينظر في هذا الأمر بدقة عند كتابته حياة الفقيد ، فعلى فهم هذه الناحية من حياة (الزهاوي) يتوقف تقدير أدبه ومدى تأثيره ، وما له وما عليه . فلقد كان فقيدنا متطرفاً بالرغم منه ، إذ أن ما اعتوره من الأمراض العصبية والأمراض الجسدية المزمنة ، جعله كذلك ، ومن هنا يدرك القارىء أن رأيه في (اللذة والألم) الذي ناقشه فيه الأستاذ العقاد قبل سنين ، لم يكن مجرد إغراق منه كان يقصده للظهور بمظهر المخالف ، بل كان في الحقيقة يمثل حالته النفسية والعصبية ، فقد كان يرى أن الألم في الحياة أمر قائم بذاته ، وأن اللذة هي إنعدام الألم ، وذلك طبيعي بالنسبة له ؛ فما كان يشعر باللذة في حياته إلا في الوقت الذي ينصرف فيه الألم الجسدي عنه .

وقد تنبه الأستاذ العقاد الى هذه الناحية عند التعقيب على تلك المناقشة (١) فأشار الى أنه لا ينكر أن (الزهاوي) يكابد من حياته ما له دخل كبير في تمكين هذه العقيدة من نفسه .

---

(١) راجع فصل « اللذة والألم » في كتاب مطالعات في الكتب والحياة للاستاذ عباس محمود العقاد .

فالتطرف إذن هو الظاهرة التي تتركب عليها نفسية الزهاوي في حياته الشخصية وحياته الأدبية ؛ واذا أدرك الناقد أو المؤرخ علة ذلك في تكوينه وفي أعصابه ، فسيدرك بطبيعة الحال أن الاغراق والتطرف في شعره قد يؤديان في بعض الأحيان الى ظهوره بمظهر المنقلب على نفسه ، وعلى ذلك فليس في شعر (الزهاوي) تناقض أو رجوع ، بل هي حالات نفسية جارفة تقلبت عليه في وقتها فأنطقته بما خيل اليه أنه لا يتعارض وآراءه السابقة ، أو للتخلص من الضيق الذي سببته له بعض آرائه الجريئة ، كان يريد به تخفيف وطأة الطبقات المتعصبة عليه ؛ وفي هذه الناحية كان يبدو على شعره الشيء الكثير من التعمل الظاهر فيه حمله على نفسه ، وهنا لا يصح اعتبار مثل هذه الحالات ميزاناً للحكم على آثاره الأدبية والشعرية .

يخطىء أشد الخطأ من يفاضل بين الزهاوي ومعاصريه من شعراء العراق ، فانه فضلاً عن سخافة فكرة المفاضلة لن تتوفر فيها الشروط الأساسية المطلوبة ، فانهم ليسوا (معاصريه) حقاً ولا يمتون اليه بصلة العصر ، بل كان عمره المديد المملوء بخدمة الشعر والمساهمة فيه مثار الأشكال في فهم شعره وحياته . فهو من بقايا القرن التاسع عشر ، وليس من رجال القرن العشرين ، وما كان بوسعه أن يخرج على نفسه في هذا الأمر طيلة حياته .

واذا كانت خطوات البشرية في عصورها السابقة للقرن التاسع عشر قريبة المدى من بعضها ، وإذا كان التشابه والتقارب بين تلك العصور موجودين ، فهما في هذا العصر قد بلغا آخر درجات التباعد ، وقد مرت مئات السنين على البشرية في (عصور الظلام) فما كان لتلك السنين المديدة أن تؤثر تأثير بضع سنوات في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ،

فيكاد هذان العصران يمثلان (سن الرشد) للبشرية والدهر ، ففيهما استيقظ الانسان وأحس وأدرك ، وظل كذلك يخطو بسرعة فائقة في تقدمه حتى لقد كاد أن يكون من المشكل التفاهم بين الولد وأبيه ، كأن بضعة السنين التي بينهما قد أقامت بين تفاهمهما حواجز العصور .

من هنا يدرك القاريء السبب في وجود هذا البعد الكبير بين نفسية (الزهاوي) وبين نفسية شباب اليوم(١) وسبب نقمتهم على أدبه ، ومع كل ذلك فقد أرضى (الزهاوي) كثيراً من نزعات الشباب وأفكاره ، ودافع عن تلك الرغبات دفاعاً شغل حياته الطويلة ووسمها بسمات لا يستطيع مؤرخه إهمالها ، فقد كان من مناصري المرأة والسفور والتجدد ، وظل كذلك الى آخر حياته ، برغم ما جرته عليه هذه الأفكار من المتاعب له ، ومن هنا أيضاً تتضح لنا أهمية الرجل في العصرين اللذين كان له نصيب الحياة فيهما ، ومدى تأثيره في كليهما .

✡✡✡

وبعد فهل يحق لنا أن نتفاءل بهذه الحركة التي قام بها بعض المعجبين بأدب الزهاوي ؟ وهل لنا أن ننتظر منهم غير ما تعودنا انتظاره في مثل هذه الحال من دراسة منتظمة لعصره وحياته وآثاره ، أم لا تزيد هذه الهيجة على نصب تمثال له فقط ؟

على كل حال ، أننا ننتظر ونأمل أن تتشكل لجنة من المعجبين بشعره من الأدباء لتدوين تاريخ حياته ، لأنه والحق يقال ، قد كون في حياته فصلا كاملاً لحياة العراق في ملتقى عصرين مهمين من حياة البشرية .

---

(١) في هذا الكلام نظر ؛ فان الزهاوي كان حريصاً على أن يساير شعره باطراد نزعات العصر . وقد جرؤ على أن يقول ما لم يقله شيخ ولا شاب . وللرسالة رأي فيه سننشره عما قليل .
(الرسالة)

شوقي وشعره الوجداني

ذكرني الفصل الذي كتبه الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه الاخير (رجال عرفتهم) عن المرحوم الزهاوي بالقضية القديمة التي تطرق اليها . وهي قصة (العقل والعاطفة) وذلك الدور الذهبي الذي كنا فيه نعالج الأدب ونعانيه من جميع طرائقه !

ولا أريد أن أعود بادئاً . . ولكن الخواطر تنثال على المرء وتتداعى كما يقولون . وفي هذه الخواطر بعض تلك الافكار المتداعية عن الشعراء المحدثين وعواطفهم ، وعن شعر العاطفة وما يقوله بعض أدبائنا وشعرائنا المحدثين والمعاصرين في هذا المضمار .

✡✡✡

شعرنا العربي العاطفي في هذا الوقت أحوج ما يكون الى العاطفة الصادقة ، وإن كان قد بلغ بعضه غاية الذيوع والانتشار عن طريق الغناء ، فالواقع ان الغناء قد ارتفع مستواه — وعلى الأصح التلحين والتنغيم — فذاع بذلك هذا النوع من الشعر الذي ندعوه بشعر العاطفة تجوزاً وهو في الواقع فقير فيها .

ولو اردنا الحق لقلنا أن أغلب ما أذيع من الشعر الحديث المغنى لا يستحق العناية ، بل لعله أقل مستوى من الشعر العاطفي القديم الذي يرجع في تاريخه الى أكثر من ألف عام !

ولو قيس أغلب ما نسمعه من شعر العاطفة المنغوم بأمثاله من الشعر القديم لسقط هذا الشعر الحديث ، مع جدته ، إعياء أمام تلك العاطفة الصادقة التي يتحلى بها شعراؤنا الأقدمون .

أذكر أني كنت مع (شاعرنا) الأستاذ أكرم أحمد ، وهو شاعر الشباب غير منازع ، وتذاكرنا شعر العاطفة القديم والحديث . وكنا في بيت صديق كريم في جلسة لا تحتمل النقاش الأدبي . . وانساق أكرم كعادته في ترديد ما يختزنه من شعر العاطفة وهو كثير .

وكان من جملة ما أنشدناه في تلك الجلسة بعض شعر شوقي العاطفي كما سماه . وما زلت أذكر المقطوعة المعروفة لأني كنت أريد أن أرد على الاستاذ أكرم وقتها ، ولكني آثرت الابتعاد عن إثارة الجدل الأدبي في تلك الجلسة المؤنقة .

وذهبت بعدها الى الفراش وتناولت كتاباً من كتب الكشاكيل الأدبية ، فكان أول ما طالعني فيه أبيات الشاعر البدوي القديم . . وكانت الرد . وحبسته في أضلعي ولم أر الأستاذ أكرم بعدها .

تغنى أخونا أكرم بأبيات شوقي المعروفة .

بدأ الطيف بالجميل وزارا يا رسول الرضا وقيت العثارا

وهي موجودة في ديوانه ضمن الشعر الوجداني والعاطفي ، ولكني أعترف بأني لا أجد فيها العاطفة التي نبحث عنها والتي يمكن أن يتحلى بها

شاعر معاصر قياساً على شعر العاطفة البدوي كما نقرأه في مخلفات أدبنا الكلاسيكي .

لا جدال من أن (النظم) في هذه الأبيات يعد من الدرجة الأولى في القريض العربي . أما فيما عدا ذلك فلا .

✡✡✡

إن قليلاً من التمحيص يهدينا .

فماذا في هذه القطعة ؟

إن الشاعر يقول مخاطباً رسول الرضا بقوله :

خذ من الجفن والفؤاد سبيلا وتيمم من السويداء دارا

ولهجة الخطاب توحي بأن الشاعر في زحمة السوق . ولا تعدو القضية بيان طريق مجهول من جانب دليل ماهر . والسويداء كلمة للتورية أكثر منها للبيان . وكذلك الدار . وكأن الشاعر هنا شرطي مرور يؤشر للطريق !

ولنسمع بعد هذا ما يقوله الشاعر :

سألتني عن النهار جفوني رحم الله يا جفوني النهارا

قلن نبكيه قلت هاتى دموعاً قلن صبراً فقلت هاتي اصطبارا

وهذه ذروة الشعوذة العاطفية !

فلماذا يموت النهار ؟ وكيف تسأل الجفون الباكية مع قلة الدمع ونفاد الصبر ؟ ومن هو المجيب المماحك ؟ وماذا في الجواب من عاطفة ؟

لماذا كل هذا اللف والدوران في أمر بسيط من قضايا العاطفة البديهية؟

ولماذا هذا القتل مع سبق الاصرار بلا أسباب داعية ؟ وهل تقتضي الحياة العصرية مثل هذه المماحكة لكي يعبر شاعر عصري عن عاطفته الشعرية ؟

كان الشاعر البدوي في مثل موقف شوقي عند حديثه عن الحب والحبيب والنهار والليل ، فلنستمع اليه انه يقول :

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل هزتني اليك المضاجع
لقد ثبتت في القلب منك محبة كما ثبتت فى الراحتين الأصابع !

وهذه هي ذروة العاطفة السليمة الخالية من كل تصنع ولف ودوران .

فكم هو جميل هذا البيان الساحر الذي يدخل القلب مباشرة بعكس ذلك الخطاب البعيد عن الروح بين أجزاء جسم الشاعر من عيون باكية بلا دموع !

وكم هو جميل هذا التشبيه للحب الثابت ثبوت الأصابع في اليد فان الشاعر لم يحتج الى أن يقيم بينه وبين أعضاء جسده من عيون وآذان تشكيلة تمثيلية ذات حوار !

بين شوقي وهذا البدوي عصور وعصور . ولكن العاطفة البشرية واحدة ، ولو قيض لهذا البدوي أن يكون بين ظهرانينا اليوم ولو تيسرت له حياة الترف والصالونات التي عاشها شوقي وأمثاله من شعراء العصر ، لما تردى في هوة التصنع والحذلقة في نظم شعره . ولكان شعره أرقى .

إن معيار الرقي في العاطفة لا يتقيد بالزمن ، سواء أبعد العهد به أم كان من الزمن الحاضر . وفي رأيي أن عنصر الديمومة من شعر شوقي لا يعود الى شعره الوجداني ، لأنه مفتقر لتلك الديمومة التي سلف الحديث عنها ، ولأنه تقليد للمطبوعين وليس مطبوعاً بأصله .

أما شعره الآخر ، وهو الشعر الذي انصرف الى الوصف والتدوين — كما هي الحال في تمثيلياته — فانه أقرب حظاً الى البقاء من شعره العاطفي .

كافكا .. أديب الخوف

كانت (ملينا) وهي الأديبة المرهفة الحس ، أول من أحس بعظمة (كافكا) الأدبية ، فنقلت رواياته الى اللغة الجيكية .

وكان (كافكا) في ذلك الحين — وفي الواقع حتى بعد وفاته — منكور القدر في بلده ، ولم يتسن للعالم أن يعرف مقدار منزلته الأدبية إلا بعد أن زال عن المسرح الأدبي بوقت طويل .

ولقد كتب الكثير بعد ذلك عن (كافكا) من جانب النقاد ، وأعطي ما يستحقه من التقدير . ولعل هناك المزيد من المجال حول هذا الموضوع ، لا يزال قيد النظر .

لقد كان (كافكا) أديباً أسطورياً في قدرته التحليلية ، وهو بحق أبو الرواية السيكولوجية ، والمتمم الحقيقي لمدرسة دستويفسكي . ويراه كثير من النقاد أكبر منه .

وفي الكتاب الذي ألفته الأديبة الألمانية (بيوبر نيومان) عن (ملينا) عشيقة (كافكا) صورة حية لهذا الأديب العبقري خلفتها (ملينا) نفسها تلقي ضوء على شخصيته الأدبية ، وتسجل حالة نفسية عجيبة التكوين لهذا الأديب الفذ .

كانت (ملينا) في منتصف العقد الثالث عند ما نشأت صلتها العاطفية بكافكا الذي كان يكبرها سناً . وتقول مؤلفة الكتاب أنها كانت من تلك الفئات من النساء اللواتي لهن رقة النساء وعزم الرجال ، في حين أن (كافكا) المصدور ، القلق الفكر ، كان يكابد تلك الحالة الغريبة التي سجلها في كتبه الباقية ، وهي حالة (الخوف) التي لازمته طيلة حياته ، والتي تعد من عقابيل الحضارة القائمة ، حضارة المدنية المعقدة ، واضطراب الأعصاب ، والانهيار السريع أمام الشدة ، والبكاء الصامت أمام عجز الانسان إذا كان مدركاً لعجزه ، كما هي الحال في انسان هذا العصر ، عندما يكون في الذروة من الثقافة .

تقول (ملينا) عن (كافكا) في إحدى رسائلها الى صديقتها « إنه كان واضح البصيرة ، له من الحكمة الزائدة ما يقعد به عن القدرة على الحياة ، ومن الضعف الزائد ما يقعد به عن النضال والكفاح » . وهو قول يتضمن خلاصة علاقتها العاطفية معه ، وهي علاقة أشبه ما تكون بقصص الخيال منها بواقع الحال .

لقد أحبت (ملينا) الأديب المجلى في (كافكا) ، وفشلت في حبها معه بل فشل هو في حبه لها ، بعد إن تقابلا . وكان السبب في كل ذلك اضطراب نفسيته ، وحالة الخوف المقيم الذي لم يستطع أن يعرف له سبباً ، والذي يصف الرعب الناشىء من عدم التفاهم بين البشر وواقعهم المعقد ، ذلك الرعب الذي يسير نحو الغور والعمق أكثر مما يسير نحو السطح .

وقد كتبت الى (ماكس برود) الأديب الذي يعود اليه الفضل في الكشف عن عبقرية (كافكا) والذي نشر رسائله اليها وعلق عليها ، وكتب سيرته ، رسالة تعد بحق كشفا أدبياً ونفسياً ، تجيب فيها عن السؤال الحائر : لماذا كان (كافكا) يخاف من الحب ؟ فقالت :

أستطيع أن أنكب ليالي وأياماً لأجيب عن هذا السؤال في رسالتك . أنني أنظر الى هذا الموضوع بصورة تختلف عن نظرتكم . فقد كانت الحياة بالنسبة له أمراً بعيداً كل البعد عما يراه الآخرون ، من حيث المال والأسواق ، والكاتب ، وما اليها . فكل هذه الامور يراها اسراراً مغلقة ، وهي في نظره أحاجي بالغة السر والخفاء . وحتى في عمله في مكتبه الرسمي كموظف كان كل شيء يبعث على الاستغراب والعجب كما تبدو للصبي الغر ما كنة قطار مثلاً . إنه لا يفهم أبسط الأمور في الدنيا . هل رأيته يوما ما يضع مسودة برقيته وهو يهز رأسه شاكا ، ثم يأخذ المسودة الى النافذة التي تأخذ اليه ، ثم يذهب الى النافذة الأخرى دون أن يدري ماذا هنالك ؟ وهل رأيته عندما ينتهي من كل ذلك ويرسل البرقية ويدفع المبلغ المطلوب ، كيف يعد الباقي ثم يعيده الى الفتاة الموظفة لكي تستعيد (كراونا) زائداً ، ثم يدرك بعد ذلك (الكراون) لم يكن زائداً كما ظن فيعود الى الفتاة مرة أخرى ؟ آنك تقف الى جانبه وهو يتنقل من مكان لأخر وقد أخذك اليأس من حالته وهو يحاول أن يستقر على حال من القلق ، يرفع رجلاً ويحط أخرى ؟ إنه يكون من الصعب عليه آنذاك أن يعود لأن الجمع هناك متكاتف على شباك البرقيات ، فأقول له : حسناً . . ألا تتركها ؟ وذلك لكي أتلقى نظرة وجوم واستغراب ، فكيف يمكن للمرء أن يترك الأمر كذلك ؟ إن (الكراون) ليس مهماً . ولكن الوضع ليس مقبولاً . فانه لا يأبه حقاً للكراون في جيبه ، ولكن كيف يا ترى يمكن أن يكون الحال كذلك ؟ إنه يلقي محاضرة طويلة عن الموضوع ويعرب عن انزعاجه ، ويعيد الكرة في كل حانوت يمر به .

وفي إحدى المرات أعطى سائلة قطعة ذات (كراونين) وطالبها بارجاع

الكراون الآخر . وبقينا دقيقتين ننتظر كيف يحل مثل هذا المشكل . ثم خطر له في النهاية أن يعطيها الاثنين ، ولكنه بعد أن سار خطوتين أدركه الندم . مع أنه هو نفسه كان يعطني عشرين ألف كراون بلا تردد ولا سؤال لو أني سألته إياها . ولكنه لو فعل ذلك ، وأردنا أن نصرف المبلغ وخطر له أن هناك كراوناً واحداً لم يكن لي أن آخذه لظل طويلاً يفكر في كيفية الحل .

إنه هكذا أيضاً أمام المرأة كما هو أمام المال . وحتى أمام عمله . فقد توسلت اليه مرة بعد أخرى ، وكتبت اليه أعيد وأكرر أن يقضي عندي يوما كنت في حاجة أن أقضيه معه ، واستحلفته بالله أن يفعل ذلك ، ولكنه ظل يعذب نفسه ويكتب لي بالاعتذار . لماذا ؟ لأنه — لم يكن يدري كيف يستطيع أن يستاذن من رئيسه في الحصول على الاجازة من المكتب ! إنه لا يعرف كيف يضع العذر على حد تعبيرها هي في رسائلها الى ماكس برود ، والى صديقتها مؤلفة الكتاب ، هو خوفه المتأصل في نفسه . وقد انتهت تلك العلاقة بشهقة عميقة من (ملينا) المرهفة الحس ، التي تكاد تكون النقيض الطبيعي لكافكا .

ولعل خير ما رثي به هو ماكتبته عنه (ملينا) بعد وفاته . وكانت كلمة أدبية مسهبة في جريدة (نارد دنى لستى) في حزيران سنة ١٩٢٤ ختمتها بقولها « كانت كل آثاره تصف سوء الفهم الخفي ، والجريمة البريئة في النفس الانسانية ، وكان رجلاً وفناناً من ذلك الطراز المطلوب ولا يمكن ان يكذب ، فذلك مستحيل عليه » .

هذه صورة واضحة المعالم لما كانت عليه نفسيته القلقة المعذبة ، فهو في الواقع أشبه بالضائع في هذا العالم ، وان كان من اقدر الذين سبروا غوره

في عالم الفكر والذهن . وتقول عنه (ملينا) ان كتبه كانت عجيبة ، ولكنه هو اعجب منها .

ولقد انتهت علاقة الحب بينه وبين (ملينا) نهاية عجيبة ، وبطلب منه استطاع أن يقف جامداً أمام توسلاتها المتكررة . وكان السبب في ذلك من ذوي الضمير الحساس الذي ظل يقظاً في حين رأى الآخرون ، وهم فاقدو الحس ، انهم مصونون .

ملينا .. عشيقة كافكا !

تتحدث الأوســاط الأدبية عن كتاب صدر قبل قليل في لندن (سكر دواربرغ) يروي حياة (ملينـا) الصحافية الجيكية التي لم يكن يعرف أحد شيئاً عنها ، بعد أن كشفت مؤلفة الكتاب (وهي مارغريت بيوبر ــ نيومان) انها كانت عشيقة الاديب العبقري (فرانز كافكا) .

وقد كان هذا الكتاب كشفاً أدبياً مهماً بعد أن نشرت من قبل رسائل (كافكا) اليها ، وان كانت رسائلها اليه لم يعثر عليها .

وقد اعتمدت مؤلفة الكتاب على الذاكرة في الحديث عن (ملينا) والحياة المشتركة التي قضياها معاً في معتقل (رافيزبروك) أيام الحكم النازي ، ووفاتها بعد ذلك بين احضانها .

✡✡✡

قال (كافكا) في رسائله التي نشرت قبل سنوات الى (ملينا) ــ ولم يكن يعرف أحد من هي آنذاك ــ انهـا « نار حية لم أر مثلهـا قط . . وفي الوقت نفسه تصل الذروة في عاطفتها المشبوبة ، وذكائها ، وشجاعتها ، وتذوب كلياً في تضحيتها ، بل إذا شئت فانها تبلغ ذلك كله عن طريق تلك التضحية » .

وقد صورت مؤلفة الكتاب — وهي الأخرى مرهفة الشعور ورقيقة الحس كل ذلك عندما خططت صورة تلك المرأة المشبوبة ، التي تتحلى بالجمال المعنوي قبل الجمال المادي ، ولديها منه الكثير ، في كتابها المهم هذا .

وتتعدد الجهات التي يأخذ الكتاب أهمية منها ، فهو اولاً من تأليف امرأة مهمة في تاريخ الفكر الألماني ، كانت زوجة لابن الفيلسوف المشهور (مارتن بيوبرت) ثم تركته وعاشت مع الزعيم الشيوعي (نيومان) الذي أعدمه ستالين في إحدى (تطهيراته) سيئة الصيت في روسيا ، وهي الآن زوجة أحد الشعراء المعدودين في المانيا هو (هلموت فاوست) وإن كانت من حيث الفكر تعيش عزلة قاسية بعد تلك التجربة العنيفة مع الشيوعية ، التي لم تخل من رائحة الدم والدموع .

أما (كافكا) نفسه ، فهو الآخر أسطورة أدبية شامخة استحقت مركزها في عالم الفكر في أوائل القرن العشرين بعد خمول اقترن بأكثر انداده من عظماء الفكر ، زاد في أساه مرض الرئة الذي لازمه ، وتدهور صحته ، فلم يلفت النظر إلا بعد وفاته ، وبعد أن مزق هو أكثر آثاره ، ولم يسلم منها إلا القليل القليل ، الذي أصبح الشغل الشاغل للأدباء والدارسين ، حيث يعده أغلبهم الأب الاول للقصة (السيكولوجية) أو التحليلية ، وحيث يراه بعضهم أعلى درجة من دوستويفسكي الذي يتسع مدى آثاره الى عوالم قد يكون (كافكا) اجتازها ، وقد يكون في ما تبقى من القليل من آثاره تفوق عليه فيها .

لقد كان تأثير (كافكا) في الأدب الحديث عميقاً لم يشابه تأثير أي أديب آخر من طرازه ، ولعل لذلك أكثر من سبب واحد ، فهو يمثل بداية العصر المضطرب الذي طلع به هذا القرن ، ويمثل كذلك بداية عهد

« إدراك » الاضطراب وأسبابه من جانب الفرد ، فتم بذلك المثل الكامل لما يجب أن يكون عليه مثقف هذا القرن الذي استحق أن يكون خلاصة القرون السابقة ، والذي استحق هذه التركة على علاتها ، كما يقول (كافكا) في أحد رسائله ، بحيث أخذ الأوربي يرى في الأوربي الآخر وجه (الزنجي) وبحيث أخذ يفلسف الحياة على أسوأ ما فيها لا على خير ما فيها من وجوه المادة والمعنى ، لغرض واحد فقط ، هو أن (يصالح) نفسه على قبولها .

ويعد (كافكا) أديب (الخوف) حسب لفظه هو . فقد كان أكبر من سجل هذه العاطفة الانسانية باسلوب الفنان المرهف الذي وقف وقفة المعترف لا وقفة المعاند .

وقد اتسم أدبه بالخوف من جهاته الأربع . وكان يقول لحبيبته في كل مرة — وحتى في مذكراته — إنه ضحية الخوف ، وأنها كانت تقول ذلك له بصراحة .

والخوف هنا — بطبيعة الحال — خوف من المجهول ، لأن كل أشكال الخوف الاخرى قابلة للعلاج في هذا العصر الذي وجد العلاج لكل شيء ، إلا للنفس الانسانية المعذبة .

أما مؤلفة الكتاب — وهي الأخرى أديبة ومفكرة من طراز خاص — فقد مرت عليها تجاريب تستحق التسجيل .

فقد عاشت حياة مضطربة ابتداء من زواجها الفاشل مع ابن الفيلسوف (بيوبرت) الذي تركته وعاشت مع (نيومان) في تلك الحقبة التي إتسمت بالصراع الفكري في المانيا ، وحيث انتهت حياته المفجعة على يد ستالين ، وقاست بعد ذلك مرارة الاعتقال الطويلة وعانت التمزق الفكري والعاطفي

على أشكاله ، وهي الآن تعيش عيشة فكرية في طور الكهولة شكلاً وموضوعاً ، وقد نذرت نفسها للكتابة والتأليف .

والكتاب قصة طويلة لهذه المآسي المثلثة الاطراف التيعا شها ثلاثة من نوابغ الفكر في العصر الحاضر ، يكفي أن تكون تلك الصفحات المجلدة فيه لتسجيل ذلك النزاع والقلق الفكري ، أن تجعله فريداً في موضوعه الشائق .

وقد وضع مقدمة الكتاب الروائي المعروف (آرثر كوستلر) صاحب المؤلفات المشهورة في (الردة) ، فقد كان من أوائل الذين عادوا منتكسين من تجربة الشيوعية الأوربية في أوان اصطخابها ، وحيث سجل في الكتاب المهم (الرب الذي هوى) تجربته الشخصية في ذلك المجال .

وقال كوستلر عن الكتاب أنه وثيقة أدبية ذات أهمية كبرى ، تسجل نواحي مهمة لحيوات مهمة ، فقد كان (كافكا) يحب (ملينا) ويقاسي من حبها ، كما كانت هي الاخرى تكابد من ذلك الحب ، وإن كان (كافكا) يقول عن رسائها اليه « إنها أشبه بقطرات المطر الذي يسقط على رأس أثقلته الحمى »

إن الذين يعنيهم أدب (كافكا) وحياته لا يمكن أن يستغنوا عن هذا الكتاب ، بالأضافة الى ما فيه من كشف لجوانب أخرى لا تقل أهمية عن شخصية (كافكا) نفسه ، هي تلك الحقبة المضطربة التي عاشتها أوربا في أوائل القرن العشرين ومن غضون تلك التجربة القاسية في الحرب الكونية الأولى وما بعدها .

الشاعر : ت . س . إليوت

بعد أن ذهب الشاعر (إليوت) الى عالم الرحمات ، أصبح من المفيد أن نختصر قدر ما نستطيع أغلب ما قيل فيه وفي شـــعره ، بل وفي الشعر عامة ، لأنه صار سجلاً كاملاً كمادة أدبيـــة يصح الرجوع اليه ودخل في دائرة التاريخ الادبي .

لقد ارتفع الى الرفيق الأعلى (توماس سيزت إليوت) شاعر الانكليزية المعاصر الذي أجمعت كلمة النقاد على اعتباره أكبر شعراء العصر . بعد أن بلغ الخامسة والسبعين من عمر قضاه خالصاً لوجه الأدب والشعر .

ترك (إليوت) وراءه فراغاً لا يمكن أن يسده شاعر آخر ، وإن كان الشعراء الكبار الآخرون الباقون لا يقلون عنه أهمية ولايختلفون عنه في المنحى لأنهم متأثرون بمدرسته الشعرية في المضمون ، وإن اختلف بعضهم في الشكل .

وقد استنفد (إليوت) أغلب ما يمكن أن يقال عنه وعن شـــعره قبل أن يموت بكثير . فهو مادة جدليـة في الشعر عامـة ، وفي الشعر المعـاصر خاصة ، وفي الشعر الانكليزي على وجه أخص .

والسبب في ذلك هو أن شخصية (إليوت) تمتاز بأنها شخصية فذة بين الشخصيات الأدبية في هذا الجيل . فأنت لا تكاد تعرف الى أي ينتمي حتى في جنسيته . فهو أمريكي وانكليزي على حد سواء ، وهو إنساني في أدبه فاجتاز بذلك حدود ولائه البشري لأمة ما ، وهو مؤمن ذلك الايمان العميق الذي يخرج به بعيداً عن الأديان .

ومع هذا العمق العميق في شخصية هذا الشاعر المغرد ، فأنت لا تكاد تلمس شعره ، لأنه خرج في الأخير عن التزام الشعر كمادة . وبعد أن بلغ الذروة في النظم ثار على الأسلوب وأهمله حتى وإن تيسر له عرضاً .

وفي قصيدته (أربعاء ارماد) وهي من خيزة ما نظم إطلاقاً ، يركل الروى ركلاً بعد أن صار في قبضته ، وبعد تلاعب بالألفاظ وبمخيلة القارىء تلاعب القدير ، لكي يعود من حيث البداية ، فيقول الكلام المعاد الذي لا يحتاج الشاعر الى النظم اذا ما عاد اليه .

ويقول (سرمرست موم) في كتابه (التعريف بالأدب الانكليزي والأمريكي الحديث) عن هذه القصيدة أن فيها مقاطع بلغت من الجمال والرقة والسحر والقوة مايجعلها تصبح جزءاً من وعينا العام .

✡✡✡

لقد كان (إليوت) اديباً جمع بين النثر والشعر في انتاجه . ولكن نثره لا يقاس بشعره ، ولولا دراسته القيمة عن (دانتي) لما استطاع أحد أن يذكر له نثراً يقارب ميزة شعره الفني .

ويقول (سومرست موم) أيضاً عن نثره أنه ثقيل الظل ، وأنه يبدو فيه وكأنه أستاذ يلوح لتلاميذه بعصاه وهو يلقي عليهم محاضرة يجب أن يقبلوها على علاتها ! أما شعره على وجه العموم فانه من ذلك الطراز الذي

يأسر القلب ، والذي تستخدم فيه الألفاظ كما تستخدم الأجزاء الصغيرة للقطع الفنية الخالدة . فهي تقوم بالغرض الذي وضعت من أجله ، كما تقوم بفرض العرض الفني الرائق الذي يكفي وحده لأعطائها حق البقاء .

✡✡✡

إن تلاميذ (إليوت) في الشعر وهم كبار شعراء الدنيا الآن ، كآودي وسبندر ، وداي لويس ، لا يستطيعون أن يعوضوا عنه ، وإن كانوا أشبه بالسلسلة الواحدة التي يمكن أن نضعه هو على رأسها . لأنهم تأثروا به وأنتجوا لحسابهم وحساب فنهم ما أنتجوا .

أما (إليوت) فلم يقف عند تأثير أحد ، بالرغم من ثقافته الكلاسيكية ، بل ظل كقطار سائر في طريقه لا يلوي على شيء ... يجر العربات وراءه .

ومع ذلك — وبكل صمت متواصل — بقي (إليوت) رائد الشعر الحديث دون ضجة . وبالرغم من نيله جائزة نوبل (سنة ١٩٤٨) على اعتبار أنه أكبر شعراء الأرض ، فانه ظل قابعاً في زاويته الشعرية ، وظل يناجي نفسه بصوت عال .. تسمعه الدنيا من أقطارها .

ولست أدري لماذا أذكر المعري كلما قرأت شيئاً لأليوت . فالواقع أني لست من مدمني قراءة شعره . ولست أجد فيه تلك الحلاوة التي اجدها في غراميات (بارون) مثلاً ، أو في غيبيات (سبندر) ، ولكن ما مر علي المعري من التزامه المعروف وإغراقه في ذلك الالتزام يجعلني انظر الى (إليوت) وكأنه الصورة المعارضة لذلك الشاعر الضرير !

فقد بلغ (إليوت) ما بلغه (المعري) من ارتقاء الذروة في التعبير الشعري ، ولكل منهما فلسفته الخاصة ، ولكن الذي حصل لدى المعري كان معكوساً لدى (إليوت) فقد ألزم (المعري) نفسه بما لا يلزم حسب

تعبيره . أما (إليوت) فقد فك عن نفسه كل إلتزام مهما كان ضئيلاً !

ووجه الشبه في نظري أن كلاً منهما وقف عند قيود الروى والقافية وقفة طويلة ، ثم استقر رأيه على أمر بشأنها ، كأنه هو الحاكم المفرد في هذا المضمار .

فكان (المعري) متزمتاً .. وكان (إليوت) مغرقاً في التحلل . لقد عبر (المعري) النهر سباحة بعد أن بنى جسراً عظيماً عليه ، تحدياً للضرورات .

أما (إليوت) فقد ترك النهر والجسر ، وظل على الشاطىء يصطاد السمك الصغير بعد أن خاض النهر مرات !

كل ذلك والمشاهدون لا يكلون من النظر الى الاثنين !

✡✡✡

ولابد من التطرق الى ما خلقه تحلل (إليوت) الذي جاء عن طريق التفوق في رأينا المعاصر من آثار يؤسفنا أن نقول انها كانت آثاراً سيئة .

فقد أغرى هذا التحلل الكثيرين من الواقفين على الجرف أن يقلدوه في اصطياده السمك الصغير !

ومن هنا جاءنا هذا الغثاء الذي لا نعرف كيف نصد وجهنا عنه في كل مطبوع أدبي باسم الشعر الجديد المتحرر من الأوزان والقوافي .

ولا أريد أن أشط في هذا الحديث ، فانه أصبح من قبيل الكلام المعاد . ولكني أعجب لبعض المؤسسات الأدبية الكبيرة ، والمجلات الثابتة ، حين تعتبر هذا النوع من التعبير فنياً ويستحق الخلود !

هل يستطيع أحد أن يروي لنا عشرة أبيات ذات قيمة لأوساط الشعراء ، لا لأوائلهم ، في أي موضوع من الموضوعات الشعرية التي تطرق

اليها هذا النمط من التعبير الشعري بعد عشر سنوات مثلاً ؟

ومن هو شاعر هذا الشعر بعد (إليوت) يا ترى ؟ حبـذا لو أجابني أحدهم .

وقد يبلغ غيره مبلغه في يوم من الأيام ، ولكن أحـداً لن يستطيع — بسهولة — أن يجتازه .

ومع كل ذلك . . ومع احتمال التفوق المنتظر ، فليس أمراً كبيراً أن يكون هناك (إليوت) آخر في عالمه الخاص ، فكثيرون غيره أفوق منه في عوالمهم الأخرى .

ذكرياتي عن
محمود أحمد

حاولت أن أتملص من الكتابة عن المرحوم القصاص محمود أحمد فلم يلتفت لي الأستاذ الدكتور علي جواد الطاهر ، وكان أكثر من متفائل من جدوى هذا الطلب ... ولعلي حين أجيب طلب الأستاذ الكريم فأكتب بعض الذكريات عن المرحوم محمود أحمد القصاص العراقي الأول ، سيكون لكلامي بعض الفائدة وعلى الأقل لي أنا ، فاني أشعر أن في هذه الذكريات تنفيساً عن انحباس أدبي أحس به منذ زمن بعيد ... أي منذ وضعت القلم لأنصرف الى غير عالم الأدب والقصة .

أما أن تكون لهذه الذكريات (كل) الفائدة المرجوة ، فهو أمر مشكوك فيه ، على الأقل من جانبي أنا ، هذه المرة أيضاً . فالكتابة عن الذكريات الأدبية تستدعي أن تكون العلاقة والأهمية بين الطرفين — إن كانا طرفين فقط — ذات مستوى واحد . ولم تكن علاقتي بالمرحوم محمود أحمد تتساوى مع علاقة الكثيرين الآخرين من أصدقائه ، وأخص بالذكر منهم الأستاذ حسين الرحال ، ولكنها على كل حال تسرية روحية لا يستطيع

الأديب أن يقاوم إغراءها . فهي كالحمام الشمسي .. حمام روحي يغسل الأدران ، ويأتي على الأحقاد والنوازع الفردية بعد زوال أسبابها .

وأبعد ذكرياتي في القدم عن المرحوم محمود أحمد تصل الى الثلاثينيات وكنت آنذاك أقرب الى الصباوة الغريرة مني الى الشباب المدرك . وكان هو أديباً ملحوظاً قد ظهرت له عدة كتب في الأدب والقصة . ولست أدري الآن بالضبط كيف نشأت العلاقة وشبه الصداقة بيننا . فهذه أمور ينساها الانسان عادة اذا مر عليها الزمن . ولكني أذكر المرات القليلة التي نلاقينا فيها وجلسنا نتحدث في الأدب بصورة عامة ، وفي ذهني صورة جلية عن بعض الجلسات الأدبية — وإن كانت قليلة — دار الحديث فيها حول بعض الشؤون الأدبية ، وكنت فيها ناشزاً عن الطبيعة السارية ، تتسم آرائي باندفاع الشباب بلا حاجز من توق كائناً ما كانت النوازع اليه ، فكان هو متزمتاً وكنت مندفعاً ، وكان ريضاً وكنت جريئاً ، وكان عميقاً وكنت أطوف على جناح العاطفة المنطلقة ، وإن كان ذلك الطوفان بلا غباوة . ولا أكذب القارىء أنه لم يكن يعنيني في ذلك الحين ولا يودني أن أختلف معه في الرأي الى حد التناقض ، ولكننا لم نختلف ، وتجددت اللقاءات بيننا بعد ذلك كثيراً عن رضى متقابل .

وهنا يجب أن أحدث القارىء عن نفسي قليلاً ، لكي تكون فى ذهنه صورة أقرب الى الدقة عن المرحوم محمود أحمد ، فان لذلك صلة حساسة بالموضوع كما أتناوله .

لقد كنت في تلك المدة متوجهاً بكليتي الى علم الأدب والكتابة ، منصرفاً كل الانصراف الى عالم الكلمة ، وكان يشاركني في تلك الهموم الأدبية آنذاك الأستاذ لطفي بكر صدقي ، وكنا كثيراً ما نصرف من أوقاتنا

في مطالعات مشتركة ، وفي مساجلات لعل بعض القراء القدامى يذكرون طرفاً منها ، وقد نشر خطأ في حينه ، وليس في ذهني الآن عنه أية فكرة .

وكان شيء من ذلك قد نشأ بين المرحوم محمود أحمد والأستاذ عوني بكر صدقي .. وقد نشر ضمن كتاب هو كتاب (السهام المتقابلة) . فكأن الصورة تكررت مع فارق الجبلة والزمن بين أربعة يشتركون في كثير من الخلال .

وفي يوم من الأيام صحت عزيمتنا — لطفي وأنا — على إصدار مجلة أدبية انتقادية ، فصدرت (الوميض) وكانت شعلة أدبية شديدة الوهج .. ومن المفيد أن أذكر هنا أننا تعرضنا فيها بشدة لكل من نالته أيدينا من أدباء العصر — في العراق وخارجه — ولم يسلم من أذانا إلا قليل .

وكان من ضمن هذا القليل محمود أحمد .

وكنت أول من نعته بالقصاص العراقي الأول في مجلة الوميض .

وفي يوم آخر من أيام ذلك العهد أخذنا متخلف أعداد (الوميض) ووقفنا في منتصف الجسر على نهر دجلة ورمينا بها في النهر !

وكان ذلك احتجاجاً منا على نكران الجميل من جانب القراء الذين لم يقدروا عبقريتنا حق قدرها ولم يشجعوا (الوميض) على الحياة فاغتضرت بعد العدد الثالث من صدورها ..!

ولا يغيب عن القارىء ما في هذا الجانب من الحكاية من طرافة دخلت في تاريخنا الأدبي . ولكني أترك الحديث في هذا الشأن لأنصرف الى ما له علاقة بالمرحوم محمود أحمد .

ففي تلك الفترة من حياتي تعرفت عليه وجالسته قليلاً ، ولكن فارق السن كان يباعد بيننا ، كما أن فارق النظرة الى الحياة والأدب كان هو

الآخر يباعد أكثر من فارق السن .

ومع ذلك فقد كان المسن الرفيق الذي مر ذكره في (الوميض) قد ترك أحسن الأثر لديه ، ولعله ترك في ذهنه شيئاً آخر سأذكره بعد قليل .

فقد كنت بعد هذه الفترة أكتب سلسلة من الصور القلمية عن بعض الاخوان من الأدباء ، ويؤسفني أنها ليست تحت يدي فقد فقدتها منذ زمن ، ولا فكرة عندي عن مقياسها ، بل لعلي نسيت كل ما يتعلق بشأنها منذ حين .

ولم يخطر في بالي أن المرحوم محمود أحمد كان يتعقب هذه الصور ويبدي إعجابه بها ، حتى جاءني نداء تلفوني منه في يوم من الأيام يدعوني فيه الى داره — وكانت آنذاك في مشارف الأعظمية — وخيل لي في ذلك الحين أن الدعوة عرضية ، أو أنها لغرض طارىء . فلما زرته بالموعد لم أجد لديه ما يثبت ذلك الخاطر عندي ، بل لعلي شعرت آنذاك أنه كان يرمي من من وراء هذه الدعوة الى أن أكتب عنه صورة قلمية من ذلك النسق .

وهنا يتدخل غرور الشباب وعنجهيته . فلم يكن المرحوم محمود أحمد بأقل شأناً من الذين كتبت عنهم ، بل لعله أحرى بالذكر من بعضهم . ولكني — عند ما تحسست بغرضه — عاملته ببرود مصطنع ، واختتمت المقابلة بصورة لا أذكرها جلياً الآن .

ولم أكتب عنه !

ولا أكذب القارىء أنني نادم على ذلك ، وليس هذا كل ما ندمت عليه في حياتي ولا بعضه ، ولكنه من بعض ما أذكره بحرقة ، فقد رأيت المرحوم محموداً بعدها ، وشاءت الصدف أن تربطنا رابطة الجيرة بعد ذلك بوقت غير قصير ، وكان مريضاً منخذل النفس ، وبعدها سافر ولم يعد !

وبعد .

فقد مرت شخصية محمود أحمد من حياتي مرور الخيال البعيد ، ولكنها تركت في نفسي أثراً لا يمحى . وجماع ما يمكن أن أذكره الان عنه أنه كان رضي النفس ، هادىء الطبع ، يحاول مخلصاً أن يكون ذا نفع لسواه ، ولا يخلو ذلك من بعض المبالغة في كثير من الأحيان ، ولم أسمع منه أية كلمة نابية شكلاً أو موضوعاً ، وكان يريد أن يبدو كثير المطالعة والاطلاع ، وإن كنت لا أعرف على وجه التأكيد كيف كان يقرأ وماذا يعقب في قراءاته . ولا شك في أن ما تركه من آثار يستحق الدراسة ، وقد وسم بميسم المرحلة التي مر بها أدبنا العراقي الطفل — وما يزال مع الأسف فيها — في الثلاثينيات .

وفي رأيي أن الظاهرة التي لازمته في أخريات أيامه ، وهي ظاهرة نفسية شاذة ، تستحق هي الأخرى دراسة عميقة . فقد حاول في أيامه الأخيرة أن يغير كل شيء عنه ، فتغير اسمه وأصبح بعد ذلك (محمود . أ . السيد) كما شرع في كتابة بعض آثاره القديمة بأسلوب جديد ، وكأنه لم يكتبها من قبل . والحق أني لم أدرس كيفية هذا التغيير ولا محتواه ، ولكن لا أدري لماذا أقرن هذا التغيير بشبيه له وقع لقصاص عربي آخر في مصر هو (محمود تيمور) فقد فعل شيئاً مثل هذا على أثر نكبة عاطفية أصابته هي فقد ولده .

بين النقد والتبسيط

رماد الليل

مجموعة قصص لعامر رشيد السامرائي
كلمة في القصة .. وأخرى في الكتاب

القصة الحديثة — وهذا مما يزيد في التعقيد — من اكثر أنواع الأدب حاجة الى التعريف المتفق عليه حتى بين أساطينها . فهي في الواقع كالطعام الجيد لا اختلاف في تذوقه ، وانما يقع الخلاف عند التحليل والصنعة .

وقد اختلف — فعلا — كل أساطين القصة في تعريفها تعريفاً « لاينفذ منه الماء » كما يقولون . ولكن القليل من الاختلاف وجد عند التذوق ، بدليل أن الذين اختلفوا حول التعاريف قد اتفقوا على القصة الجديدة اذا ما اختار أحدهم منها نماذج . فلم يقل أحد بأن قصة كذا مطعونة ، لأنها لا تنسجم مع قياساته ، وإنما ظلت القياسات كنوايا المرء من مكنونات صدره .

ولا بد من القول بأن القصة جسم يصيبه ما يصيب الأجسام الحية من عامل الزمن . فحكايات ألف ليلة وليلة لا يمكن أن يكتبها إنسان اليوم ، بله أن يكون أديباً يريد الخلود . ولذلك فان القصة ستكون في قابل الزمن

شيئاً من مثل ما نقرأ اليوم لقصاصين كـ (سومرست موم) مثلاً ، وإن كان احتمال ارتفاع المستوى موجوداً في كل حالة .

☼☼☼

ولذلك أيضاً فاني لا أجد إلا تعريفاً واحداً أستطيع أن (أتعامل) به في هذه الوجيزة ، وهي أن القصة « هي قصيدة وزيادة » بمعنى أن المعنى الشعري الموجود في القصيدة ينبغي أن يكون موجوداً في الأقصوصة بزيادة أخرى ، هي أن النغم الموسيقي في النظم يجب أن يعوض الناثر عنه بشيء آخر يزيد عن الناظم لذة .

وربما كان هذا تعريفاً قلقاً للقصة ، ولكنه تعريف سيساعد على بسط الموضوع من حيث النظر الى الكتاب المفقود ، ويخفف عن القارىء مؤونة الذهاب بعيداً عن الموضوع من دون ضرورة .

تشترك القصة الحديثة والحكاية القديمة في كثير من المقومات ، كالزمن والعقدة ، إن وجدت ، والسرد الجيد . أما الذي تنفرد فيه القصة الحديثة فهو التحليل النفسي الذي وجد بعد (فرويد) و (أدلر) ، فهذا هو العامل الحقيقي الذي يخلق الفروق بين قصة وأخرى ، وبين كاتب وآخر .

أما الخيال ـــ وهو من المقومات الثانية أيضاً ـــ فانه لا يزال مشتركاً بين الاثنين حتى الآن ، وإن كان دوره في القصة العربية الحديثة قلقاً ، بعد النزوع الذي يكابده القارىء العربي من جهة والكاتب العربي من الجهة الأخرى ، في موضوع التزام (الواقعية) كمدرسة فكرية ، أو التشبث بالمثل العليا التي يؤمن بها الاثنان معاً ، وهي كثيرة التقلب في هذه الفترة الزمنية بسبب عامل القلقل النفسي أولاً ، وبسبب العوامل السياسية التي تغلف جميع الاحداث في الشرق العربي بصورة قسرية ثانياً .

وهناك ارتفاع المستوى العلمي ، فقد دخلت عالم القصة روح العلم المجرد ، فنشأت تلك الأقاصيص والروايات التي أطلق عليها أخيراً إسم (القصص العلمي Sciencefication) ، وهو نوع لم نألفه بعد ، ولكنه سيأتينا بزخمه المتئد على كل حال .

أما العامل الذي لا مناص من الوقوف عنده طويلاً ، فهو العامل الفردي الذي يلون كل قصة ، بل كل عمل أدبي مهما كان شكله ، وأعني به موقف المؤلف حين يختفي وراء الكاتب ،

فهناك قصص الكتاب الذين يستعملون لفظة (أنا) والآخرين الذين يستعملون لفظة (هو) وقد يكون الاثنان بعيدين عن واقع الحال .

وعلى كل ، فان استعمال لفظة المتكلم أكثر إلزاماً اذا تكررت في جيمع آثار الكاتب — كما هي الحال مثلاً عند سومرست موم — ويقول الكثير من القراء أنها أسوغ عندهم في القراءة .

فالتجربة والمعاناة أصبحت أمراً لا مناص منه في تغذية الأدب . وقد انتهى عهد (الحكاية) المسموعة ، وغرائب الاتفاق ، ونوادر الأسفار ، وما الى ذلك من منابع القصص القديم .

إن من المطلوب من الكاتب اليوم — وقد ارتفع مستوى الكتاب والقراء معاً — أن لا يكون مجرد شخص يريد أن يأتي بالنوم الى عين المؤرق الساهر ، وإنما عليه أن يكون أشبه بالبروفسور الذي يدرس طلاباً متخرجين في مدرسة عالية ، فهو لا يمكن أن يكبو أو أن ينحط عن المستوى العلمي المفروض فيه . . خوفاً من طلابه !

✡✡✡

من هذه الوجيزة أريد أن أعرض كتاب (رماد الليل) للأستاذ عامر

رشيد السامرائي .

فهي مجموعة قصص قصيرة كتبها مؤلفها مرة بلسان الحال ، ومرة بلسان المقال ، وظلت في الحالتين واحدة .

وهي تتميز بواقع القلق النفسي ، وهو — في نظري — يميزها ، ولكنها لم تصل في العمق الى التحليل السيكولوجي ، بل ظلت في مدى العرض المجرد .

وهي تؤرخ فترة من واقع ثقافتنا عن طريق السرد . وتدخل مادة خاماً لمؤرخ الأدب عند تسجيل هذه الفترة .

هذه هي مزايا المجموعة .

أما مآخذها في نظري فهي أنها قصة واحدة في شكل عدة قصص . وإذا أردنا التمثيل فهي أشبه بصورة لفنان ذي طريقة واحدة تأخذ أشكالاً متعددة لتؤدي غرضاً واحداً ، أي أنها لا تصلح للعرض كلها ، وقد يمكن الاكتفاء بواحدة منها .

ولغة الحوار — على قلتها — جيدة ، وفيها بعض اللمحات التي تدل على قدرة الكاتب كقوله : (ص ٥٩) « كان شعور بالارتياح . . بالخلاص من قيود ثقيلة يتسرب متلصصاً في مجرى ضيق من روحي » ، وأوصاف قوية التأثير ، كقوله (ص ٥٥) « جدران البيوت تبدو كأشباح ضخمة لعجائز تقف متضرعة بأفواه مفتوحة قبيحة الالتواء » وهي تعابير مبثوثة في ثنايا المجموعة تبين أن للكاتب قدرة الاستيعاب والتلوين بأوجز الألفاظ ، وهو أمر يبدو في بعض الأحيان متفاوتاً مع التطويل في وصف بعض المشاهد الواحدة ، وبشيء من التكرار المعنوي الذي لا لزوم له .

وفي رأيي أن بعض المشاهد (السادية) كمشهد الثأر غير المقصود في

قصة (رماد الليل) من المرأة التي يتمثل فيها جسد من تركته . لا لزوم لها ، وقد كانت تكفي إشارة عابرة لها في سياق القصة ، أو في ختامها .

كما أن هناك مشاهد أخرى ابتعدت عن الروح الفنية كثيراً عندما تبلورت في سياق السياسة ، كما هي الحال في قصة (كلمات لن تموت) فهي تكاد تكون مقالة سياسية .

أما قصة (القطار) فقد بدأت بقوة فنية ، وانتهت النهاية السياسية نفسها .

وقد كانت مراجعة بسيطة للمجموعة على الصعيد الفني من قبل المؤلف أحرى بأن تحذف جانباً كبيراً من تلك النصوص .

✡✡✡

خلاصة القول في هذه المجموعة أنها بداية طيبة لجهد فني ، إن كان يعوزه الابتكار في هذه المرحلة ، ففي الوسع أن يغنى عن طريق المران والمزيد من القراءة والكتابة .

وفي رأيي أن كتاب القصة كناظمي الشعر ، يجب أن يكون عندهم حد معين للحفظ قبل الولادة . فكلما كثر المخزون كان الناتج عميق الجدوى .

وفي هذا الوقت الذي تحتفظ فيه القصة القصيرة بأولويتها في ميدان الأدب الحديث ، وبالنظر لهذا الفيض الواسع من النتاج العالمي ، لا يشق على الكاتب أن يطلع — عن طريق المطالعة المستمرة — على الأسلوب ، أو الأساليب ، الجديدة في عالمها الفسيح ،

النفس ..

إنفعالاتها وأمراضها وعلاجها

تأليف الدكتور علي كمال

في الثلث الأخير من القرن العشرين ، وبعد أن تركزت النظرية النسبية والفلسفة الوجودية ، برز موضوع (النفس) بشكله المتحدي ، لكي يصبح ملكاً للمتخصصين وغير المتخصصين على السواء ، وصار رجل الشارع يشارك أكابر العلماء في أمر النفس وعلاجها ، لأن الشكوى عمت جميع طبقات الناس ، ولأن جميعهم سواسية أمام تلك الخاصية .

وبازدياد علل المدنية الحديثة — وأغلبها من ذلك الطراز الذي يكمن في جذور المدنية نفسها — زادت الأمراض النفسية وتشعبت ، وبلغ من تعدد مظاهرها أن وصل الى حد الاختلاط . وكما هي الحال في صعوبة الولادة العسرة ، شق على علم النفس أن يرى النور إلا بعد أن تطوح هنا وهناك ، ولم يسلم في البداية من الانسلال من بين الأساطير إلا بصعوبة .

وفي أوائل القرن عند ما برز (فرويد) أول أب لهذا العلم ، وكان كعادة الآباء المتشددين يرى رأيه المتزمت بحكم السن والأسبقية ، تعدد

الآباء الآخرون لعلم النفس ، فكان (يونج) و (أدلر) وغيرهما ، وطغى علم النفس على جميع مناحي الحيـــاة الأخرى ، فكان التأثير السيكولوجي على الفنون كتأثير النظرية النسبية على العـلوم . وكما يقول الدكتور علي كمال مؤلف الكتاب الذي نقدمه للقراء في مقدمة كتابه « ان هذا العصر قد يختلف الكثيرون في تبرير الأسماء له ، ولكن أحداً لا يجادل في أنه عصر القلق . وقد يبدو في الظاهر أن الانسان في هذا العصر هو أكثر حظاً من سابقه في تحقيق العوامل والظروف التي تضمن له التوازن النفسي في حياته وفي علاقاته الاجتماعيـــة ، وذلك لأن حريته الشخصية أوسع حدوداً ، وحاجاته المادية أكثر تحقيقاً ، وثقافته الفكرية أعظم عمقاً وشمولاً ، بحيث تمكنه من إدراك نفسه وتفهم المحيط حوله . ومع ذلك فان القلق أكثر وروداً ووضوحاً في حياته ، وهو أكثر تمييزاً للعلاقات بينه وبين غيره من الأفراد في المجتمع . »

وبعد انبثاق النظرية الوجودية السارترية من جديد أثناء الحرب الكونية الثانية وما بعدها ، أصبح ما يسمى بالقلق النفسي أصلاً من أصول الحياة اليومية ، واجتياز مرحلة الظن الى مرحلة اليقين الاجتماعي ، وانتقل من الأفراد الى الجماعات ، وأصبح جائحة تشكو منها الانسانية كلها بشكل مرض يستدعي العلاج المستمر .

ومن جملة التوفيقات التي تعد لمؤلف الكتاب ذلك التحليل الدقيق لجميع أشكال النظريات المتعلقة بالقلق ، من جانبها المتطرف الفرويدي — كنظرية الولادة — الى الجانب الاعتيادي الذي يكاد يمر في حياة كل فرد منا .

✡✡✡

إن كتاب الدكتور علي كمال يقع في أحسن أوقاته . فلعله لو تأخر قليلاً لتخلف عن زمنه ، أما الآن فانه في الحقيقة أوفى كتاب علمي يستطيع أن يقرأه رجل الشارع بدون مشقة .

ولا شك لدي في أنه سيكون المرجع الفريد في الأمراض النفسية والعقلية للمتخصصين ولدارسي علم النفس وطلابه على السواء . وقد جاءت مقدمة الكتاب — على قصرها وانجازها البديع — أشبه بالأطروحة العلمية المحيطة بالموضوع .

وفي رأيي أن القراءة الاستيعابية لهذه المقدمة تكفي القارىء أن يلم بأطراف الموضوع ، وما عليه بعدها إلا أن يراجع فهرس الكتاب لكي يستدرك ويستوفى جوانبه وتفصيلاته .

لقد استطاع المؤلف أن يخرج بأكبر مزية لكتاب عويص من هذا الطراز بالهروب من اللهجة التعليمية الى اللهجة الاستقرائية الأدبية . ولا ننسى أنه بدأه باقتباس طريف من الشاعر (ت . س .) إليوت الذي يقول :

« . . كل ما يمكن أن أرجو إفهامكم إياه هو الحوادث فقط . . وليس الذي حدث » .

وهو أقتباس موفق يدل على الاتجاه الفني والحسي الأدبي لدى المؤلف . ويكاد يكون شرحاً لنظريته في وضع الكتاب ، حيث يترك القارىء المعنى بالموضوح أمام الموضوع نفسه دون أن يحشر المعلومات والنصوص العلمية حشراً ، بحيث يصعب على القارىء العادي استيعابها .

ومن جملة التوفيقات التي تعد للمؤلف أنه وضع — أو أقتبس على الأصح — أحسن التعابير العربية التي تستعملها المدارس المختلفة في علم

النفس الحديث . وهو يقول في مقدمته « إن معظم التعابير المستعملة تنقل صوراً رمزية افتراضية لا يقابلها شيء محسوس أو مادي الكيان ، ولذلك فقد بات من العسير على القاريء أدراك الحدود والمحتويات الكاملة بهذه التعابير ، ووجدت فوضى الاصطلاحات النفسية طريقها الى اللغة العربية » .

وقد استطاع المؤلف — وهنا يأتي جهده الشخصي — أن يستفيد من السنوات الطويلة في التدريس والمعالجة فطبع قاموساً صغيراً من الألفاظ ذات الدلالة العميقة في وصف الأمراض « تفوق في دلالتها المصطلحات الاكاديمية » . وهذه مشاركة بديعة تغنى اللغة العربية في ميدان الاختصاص وتجعل علم النفس ميسوراً للقارىء الاعتيادي .

إن كتاب الدكتور علي كمال يستحق بكل جدارة أن يظل وليس هناك من شك في ذلك مرجعاً في موضوعه أطول مدة — في طياته المقبلة — سوف يستوفي جميع ما يمكن أن يستجد في هذا العلم الفريد ، وأن يكون مصاحباً لكل مثقف في هذا العصر القلق الذي يعيش التحدي النفسي ، ويعينه على أن يحافظ على البقاء طبيعياً في هذا الدور الذي تصعب فيه طبيعة الأسوياء .

خواطر
وسياحات
فكرية

أفكار متناثرة

آهة على عتبة العام الجديد :

أقف على عتبة العام الجديد منخذلاً أمام نفسي وأنا اتهيأ للاستقبال والتوديع . . بلوعة الخاسر .

هكذا تمضي السنون ، وفي كل منها لبنة من لبنات العمر المعدودة وتذهب بلا عودة فيتقوض البناء مرة أخرى ، ويصبح — الموعد — أقرب مما كان !

وفي غضون كل واحدة من هذه اللبنات أمارات ونذر . . . فقد ذهب الى الرفيق الأعلى فلان وفلان ، وتلاهما الآخر والآخر ! فما معنى ذلك ؟

أليس معناه النذير المحتم ؟

وماذا في طوق كاتب عتيق المولد والمنشأ والفكر أن يصنع ، وقد طواه الزمن في ثناياه سوى أن يقول (آه) ؟

إن هذه الآهة هي كل ما عندي وأنا أشاهد عام ١٩٦٣ يحتضر أمام عيني .

إنها آهة خافتة مهموسة ، ستكون أختها في العام القابل — إذا جاء — أشد منها خفوتاً وهمساً .

هذا باعتبار ما سيكون . . . أما الكائن فهو ملفوف بالغيب ولا يجرأ مثلي على التطلع الى ثناياه .

وبعد هذا سيكون (الموعد) أشد قرباً !

أغوار النفس الانسانية :

هذه الأكداس من الكتب والصحف والمطبوعات على أشكالها . . ترى كم كشفت من نفس الانسان ؟

إن هناك من يقول أن الانسانية ما زالت مجهولة من بني الانسان ، وأن العلم والأدب ما زالا يبذلان الجهد — بلاطائل — في هذا الميدان .

وقد قال الناقد (هربرت ريد) — وهو من أكابر أساطين النقد الفني والأدبي — في بعض تعريفاته للأدب والفن ، أن النفس الانسانية الظاهرة للعيان — بما فى ذلك العيان العلمي والظني على السواء — تشبه الى حد كبير قطع الثلج العائمة على وجه البحار .

فان البارز من هذه القطع إنما هو ثمنها . . والباقي مختف في المساء ولا يمكن أن يظهر .

وكذلك النفس الانسانية فان الظاهر منها ما هو الا جزء يسير — لعله أقل من الثمن — من تلك التي ندعوها بنفس الانسان .

وما هذه المحاولات التي سبرنا غورها في الشعر والنثر وفي العلم ، إلا جهود مخفقة في سبيل معرفة ذلك الجزء الضئيل من النفس الانسانية .

ولو صح هذا المقياس لاختلفت نظرتنا الى تركة الفكر البشري التي نتمتع بها في مخلدات الأدب الانساني كله . . وحتى في علم النفس الذي اشتد ساعده كثيراً في غضون القرن العشرين ، ولاختلفت مهمة الأديب والعالم على السواء في هذا المضمار .

شرق وغرب :

إنتهى النصف الأول من القرن العشرين وفي غضونه حربان كونيتان . وبدأ النصف الثاني منه وفي ثناياه جنين حرب كونية ثالثة !

وقد قيل أن توقع الامتحان أشق من الدخول فيه . ولذلك فان توقع الحرب المظنونة إن لم يكن أشق من الدخول فيها ، لهولها ورعبها ، فهو لا يقل عنه سوءاً !

ومعنى هذا أن مدنية الغرب بكل مقوماتها لم تصنع ـــ طيلة قرن كامل ـــ شيئاً لراحة الانسان بقدر ما صنعت لقلقه واضطرابه وانهزامه أمام الحياة

وليس يبدو في الأفق ـــ فوق ذلك ـــ أن هذه المدنية سوف تستطيع أن تصنع شيئاً في سبيل الانسانية في المستقبل أكثر مما صنعت في الماضي .

وما صنعته حتى الآن هو سباق التسلح وراتفاع أصوات المتخاصمين بما يهدد بأن يلجأ جميع أطراف حرب العقائد الى استعمال السلاح . . وهو ذري وهيدروجيني في هذه المرة !

فما كان الأفضل يا ترى لمصلحة الانسانية ؟

هل هو هذا العصر المضطرب الذي يتأجج بنار الحرب ، أم عصور الظلمات التي كانت البشرية مفتقرة فيها الى مخترعات العلم الحديث . ولكنها كانت مكتفية بما وجدته من راحة الفكر والضمير ؟

لا أعتقد أن من المصلحة التسرع في الاجابة عن هذا التساؤل . ولكن مما لاشك فيه مطلقاً أن الشكوى من هذا العصر المضطرب الذي لا راحة فيه عامة من جميع الأطراف بلا استثناء .

ونحن الشرقيين ننظر باحترام وتقدير الى منجزات الغرب العلمية ، ونشعر بتفوقهم علينا في جميع المجالات ـــ وهم متفوقون فعلا ـــ ولكننا

ننسى شيئاً بسيطاً ، ولكنه مهم كان ينبغي أن لا يذهب عن بالنا .

وهذا الشيء البسيط هر أن الغرب معذب بتفوقه علينا عذاباً قد لا يقل عن عذابنا من جراء شعور النقص الذي نكابده من ذلك التفوق !

ولعل الأصح أن نقول أن الغرب يتعذب والشرق يتخيل انه معذب وبقليل من التحليل النفسي الاجتماعي تنحل هذه العقدة الواضحة ، ويستطيع الشرق أن يستعيد شخصيته التي فتتتها سلسلة من عشرات السنين المظلمة .

تحيـــة ..

الكاتب الانكليزي المعروف (جون كريزي) ذو شخصيات متعـددة . فهو رئيس ومؤسس جمعية مؤلفي الروايات البوليسية ، وهو يحمل عـــدة أسماء فنيـة وكتابية تجاوزت الخمسـة ، وقد ألف أكثر من أربعمائة كتاب أغلبها في فن الرواية البوليسية .

وهـذا الكاتب معروف باسمه هـذا وبأسمائه الخمسة أو الستة في عالم التأليف ، وما زال مستمراً في الانتاج بهذه الضخامة العجيبة .

ولست بسبيل تعريف هذا الطود في عالم التأليف ، فان التركة الفكرية التي خلفها حتى الآن تضعه حيث يستحق الوقوف في عالم الفكر .

ولكن الذي دعاني الى التعقيب على هـذا المؤلف ما نشره أخـيراً من مقالات متسلسلة في مجلة (جون اولندن) الأدبية المعروفة بعنوان « بحثاً عن البسـاطة » وهي مقالات أدبية أبعد ما تكون عما تعود الكتابة فيه من فن بوليسي .

ففي رأي هذا الكاتب الضخم أن أرفع الأساليب في الكتابة هو ذلك الأسلوب البسيط السمح الذي لا تعقيد فيـه ، وقد استغرقت هـذه الفكرة

عدة مقـالات نشرها في المجلة آنفة الذكر ، ولعله سيخرجها في كتاب كما أشار في آخرها .

ومن أعجب ما ذكر عن هذا الكاتب عند ما زاره مندوب عن المجلة للكتابة عنـه وعن حيـاته ، شكواه من ضيق الوقت الذي فاته في الماضي ، وبذلك فوت عليه المزيد من الانتاج ! كان الأربعمائة كتاب قليلة في نظره !

إني أحني رأسي إعجاباً لهذا الطود الانسان مرة أخرى .

الى أين ؟

انتصف القرن العشرون وبدأ الشـــق الثـاني منه على الأدب العربي وهو يظلع .

وبالرغم من الرقي الذي وصلت إليه الطباعة والصحـافة ـــ وهو يكاد يناجز أرقى ما ارتقت إليـــه في عالم الغرب ـــ فان مادة الأدب العربي لا تزال ضحلة لا عمق فيها .

وبالرغم من ارتفاع مستوى العيش من جهة ، وارتفاع القيم والمقاييس من جهة اخرى ، فما زلنا نعتبر ـــ مرغمين ـــ شعر (شوقي) مثلاً في القمة ونسمع هذا الشعر يغنى كل يوم من جميع الاذاعات العربية على أساس أنه خير ما يمكن أن يقال ، لأنه شعر (أمير الشعراء !)

ولست أدري أي قيمة لأمة هذا هو شعر أمير شعرائها ، وهو أمير لم يرتفع قط في شـــعره عن البديهيات ، ولم يتخلص الى آخر زمنه من قيود البديع المتكلفة التي لا علاقة لها بعصره .

وبالرغم من الامتزاج الطبيعي بين آداب الأمم ، فان الأدب العربي ظل سالباً لا يأخذ ولا يعطي ، وظل يجتر أساليبه القديمة اجتراراً وينظر بعـين

الريبة والقلق لكل خطوة تقدم يراد بها التحرر من عبودية الماضي . وارتفعت تهمة من يريد ذلك الى الخيانة العظمى ، ولم تنخفض قط الى مادون خيانة التاريخ والدين .

فالى أين وجهة هذا الأدب يا ترى ؟

☼☼☼

لقد كثرت المجامع العلمية في جميع البلدان العربية ، وقل الأدباء المبدعون ، وتلك هي علامة العقم في الأمم ، ودليل ذلك أن هذه المجامع لم تنتج أدباً راقياً معترفاً به ، في حين أن ذلك الأدب يزدهر ولا مجامع علمية هناك !

بل لعل هذه المجامع وقفت في طريق تقدم الأدب والعلم في البلاد العربية لأنها أساءت فهم وظيفتها من جهة وأساءت التصرف بها من جهة أخرى . ولست أريد أن أخوض في التفاصيل والأسباب ، لأن ذلك ليس هدفي ، وهو لا يغني في النهاية عن الحقيقة الواقعة ، وهي أننا لم نسهم في أدب الانسانية ، في حين أن الزنوج أسهموا فيه وأبدعوا ، وأننا في مؤخرة القافلة البشرية في مضمار الأدب .

فقد اشتركت أمم الأرض كلها ، مثلاً في مضمار القصة القصيرة أخيراً في مسابقة جريدة (نيويورك هيرالد تريبون) ولم تشترك الأمم العربية فيها . ولعل من نذر الغيب في ذلك أن تمثل في هذه المسابقة (اسرائيل) ولا ذكر لأمة عربية واحدة في ذلك الحقل !

وما أكثر ما تنتج المطابع العربية في مختلف أقطار الأمم العربية من القصص ، ولكنها لم تستطع أن تقف على قدميها في مسابقة بسيطة من هذا النوع وذلك في نظري دليل على تغلب روح الاستهتار والهروب من المسؤولية

من جهة ، وشيوع الصلف والادعاء عند العرب من الجهة الأخرى .

✡✡✡

ذكرت ذلك كله حين قرأت مؤخراً كتاب (زهار الأشعار) للمستشرق المعروف (آرثر جون آربري) الذي عرف بدراساته في الأدب العربي المعاصر ، والذي حرر مجلة (الأدب والفن) في غضون الحرب ، فكانت من خيرات تلك الحرب أن انقطعت بانقطاعها ، بل لعلها بكرت في ذلك قبل الأوان .

وقد جمع المستشرق (آربري) في كتابه هذا كشكولاً من الشعر المعاصر لجميع الأقطار العربية ، لا أظن أحداً من نقادنا أو أدبائنا يرضى به ، ولكني لا أظن كذلك أن أحداً منهم سيقول عنه أنه (جاهل صنعة) فذلك أبعد من أن تسمعه من أدبائنا ونقادنا اذا كان الأمر في يد بحاثة أجنبي !

وما يجلب النظر في هذه الأشعار التي انتقاها المستشرق الانكليزي ونقلها شعراً الى لغته ، أنها خلت من شعر (أمير الشعراء) ومدرسته واحتوت في مضامينها قطعاً لمن لم يسمع بهم أحد في بعض الاحيان ، أو لمن لا يعرف أحد عنهم الشاعرية في قليل أو كثير .

وذلك معناه أننا عجزنا أن نقنع نقاد الغرب وأدباءه بشعرنا (المقرر) فلا « سلوا قلبي غداة سلا وتابا » ولا « ريم على القاع » وإنما هناك مثلاً قطع من ميخائيل نعيمة يقول فيها :

سقف بيتي حديد ركن بيتي حجر
فاعصفي يا رياح وانتحب يا شجر
واسبحي يا غيوم واهطلي بالمطر

واقصفي يا رعود لست أخشى الخطر
سقف بيتي حديد ركن بيتي حجر

ولا أعلم ما الذي سيقوله أصحابنا عن هذا الشعر وعن بديعه ، وهل جاء في كلام العرب سقوف من حديد وأركان من حجر وأشجار تنتحب ؟ ولكن الذي أدريه أن هذا الشعر هو الباقي من نتاج أدبنا المعاصر ، لا تلك القوالب التي هي بالمومياءات أشبه من نظم مدرسة (أمير الشعراء) ومن لف لفه ، ودليل ذلك كتاب المستشرق (آربرى) نفسه .

***

الى أين يتجه ادبنا العربي اليوم ؟

لا أشك أن هناك تململاً وأن هناك نزوعاً نحو المثل الأعلى لدى القراء والأدباء معاً ، ولكن المؤكد أن أفضل ما لدى الاثنين لم يظهر بعد ، وأن ناحية الابداع في أدبنا المعاصر تطغى عليها بين كل آونة وأخرى موجة ارتداد لا مجال لبحث أسبابها هنا ، ولكنها ظاهرة على كل حال نجدها في امتزاج الدين بالأدب وفي اعتداء السياسة على الاثنين معاً .

ومن مقومات الحياة أن ننظر الى المستقبل بثقة ، وذلك أحرى بأن يكون مع الحياة لا ضدها . وكذلك نصنع حين نأمل من ناشئة الأدب الجديد ما هو جدير بالبقاء ، وإن كان تحقيق ذلك أقرب الى الأماني منه الى واقع الحال .

خواطر متناثرة ..

العام الوليد :

دخلنا في العام الجديد !

منذ كم كان العام جديداً والى متى سيكون ؟ وهل سيتغير يوماً ما موقف الانسان من كل عام يطل عليه إطلالته الأولى ؟

أريد أن أقبل على هـذا العام بروح المتوقع للخير لا المتسائل عنه . وأريد أن أبعد عن ناظري شبح التشكي وظلام اليأس والتشاؤم .

أريد أن أتمنى على العام الجديد أن يكون عند حسن ظن الانسانية به ، فلا يدع للكلام عن الحرب سبيلاً اليه ، وأن يطوي أضلاعه على رعاية السلم لجميع سكان المعمورة .

وأتمنى عليه أن يفتح ذراعه للعلم النير الذي تفخر البشرية بالوصول الى مستواه الرفيع هـذا ، فيوسع من مداه ويفنى في سبيل تدارك أدوار المجتمعات المختلفة ، وأن يضيق من نطاق تخلفها .

أريد أن تزول من على وجه الأرض تلك اللطخات القبيحة .. الفقر .. الجهل .. المرض .. سوء التغذية وتوابعها .

أتمنى على العام الجديد أن يأخذ العبرة الصحيحة من الأعوام السالفة . وسأضع أمام عينيه أعوام ١٩٣٨ وما بعدها .. أريده أن يطل على سواد تلك السنين فيبتعد عنه ، وأن يشرق بنور الأمل للسنين التي تليه .

أتمنى وأريد :

وأرجو أن يكون هذا التمني — المصحوب بالأنفاس المتقطعة من سكان المعمورة — موضع التلهف من عامنا الجديد هـذا ، وأن تتضافر جهود الانسانية ، وهي من خير ساعات عمرها ، لازالة احتمال الخطر الكامن دوماً من توقع الحروب ، فيسود السلام والطمأنينة وتؤتي الحضارة الانسانية أكلها الطيب ، فيحق لها البقاء .

غناؤنا .. ما مصيره ؟

بيني وبين الأستاذ عزيز علي خصومة فكرية عمرها ربع قرن على الأقل . وموضوعها الغناء العراقي ، أو المقام العراقي على الأصح .

وقد أنست أخيراً بلقاء معه ، وأثرنا هذه الخصومة من جديد ، وكان شاهد المناقشة الأستاذ الشيخ جلال الحنفي ، يشترك في الحديث بعضاً ، ويعطي الرأي ثانية ، وينتظر النتجية أخيراً .

وخلاصة القضية هي أن الأستاذ عزيز علي — وهو ذو الشأن الأكبر في اشاعة فن المنولوجات ، أو موجده في العراق على الأصح — يريد لفنه أن يجتاز المقام العراقي .

ولا بأس من التبسط في الحديث حول الموضوع لاشراك القارىء المتتبع ولمناقشته على مستوى عام .

فالأستاذ عزيز علي يقول في اطروحته الصغيرة لمؤتمر الموسيقى العربية الأخير أن غناءنا — وهنا الشمول وهو ما أناقش فيه — لا يعبر عن

مشاعرنا وأحاسيسنا في هذه المرحلة ، لأنها ما زالت ـ كعهدها ـ في الماضي تراوح في ضحالة أسلوبها وتجتر معانيها ومراميها التافهة اجتراراً مقيتاً ممجوجاً ، ولا تتعدى تعابيرها ، مجملاً وتفصيلاً ، نطاق اشتهاء الجنس للجنس ، ونطاق الشذوذ الجنسي في بعض الأحيان .

وهذا صحيح .

فما زلنا حتى الآن نستمع بشوق الى مثل هذا الشعر المريض :

لي لـــذة في ذلتي وخضوعي وأحب بين يديك سفك دموعي

وتضرعي في رأي عينك راحة لي من جوى يشتد بين ضلوعي

فان الطبيب النفسي يقول عن قائل مثل هذا الشعر ، مثلاً ، انه مصاب بداء (الاستعراض) . وأقل ما يقال في هذا الشعر أنه لا يستحق التخليد .

ولكن القول في أن (المقام) العراقي ، وهو ذلك التراث المهم الذي أغفلنا دراسته حق قدرها ، يجب أن يوضع في زاوية المخلفات كما توضع الأثريات النفيسة .. وهذا بعض ما يرمي اليه الأستاذ عزيز علي ، ويود لو استعضنا بالفن الجديد عن حاجتنا الى المقام .

وإني أرى أن المقام العراقي مظلوم ، لأن الزمن يريد أن يجتازه ، فأصحاب القول القائل بضرورة الاحتفاظ به ، يريدونه ولا يريدون عوضاً عنه ، ويريدونه على حالته بدون تغيير . وأصحاب القول القائل بأنه ليس ضرورياً ـــ كالأستاذ عزيز علي ـــ يريدون أن يستعيضوا بالفنون الجديدة ، ومنها (الحداء) كما يسميه الآن الأستاذ عزيز علي ، ويقصد به منولوجاته المعروفة ، وغير ذلك مما يمكن أن تسفر عنه أية نهضة غنائية محتملة ، اذا توفر لها المادة الخام ، كما يقول القائلون .

وفي رأيي أن الطرفين يشتطان في الطلب . ففي الامكان (تطوير) المقام

العراقي والاستقاء منه لكل فن غنائي ممكن ، ومنه الحداء طبعاً وغيره . كما ان في الامكان أيضاً ابتكار المزيد من الأفانين الغنائية اذا تيسر لها عبقري كسيد درويش مثلاً .

إنني أعتقد أن مناقشة هذه الآراء على صعيدها العام مفيد ، وقد يؤدي الى ثمرة مجدية . وأتمنى على المعنيين في الموضوع ، سواء منه ما كان يتعلق بالمضمون أم الشكل ، أن يشاركوا فيه .

محنة الأديب في عصر الذرة

في كل ثورة علمية تطغى على العالم المأهول يعود التساؤل من جديد : ترى هل يستحق الأدب أن يؤبه له ؟ وتعود السيرة من أولها ويتكرر الكلام عن الأدب ، وهل له من ضرورة فينال ذلك من اجتهاد الناس ومن تضارب أفكارهم ما ينال ؟ كل ذلك على حساب الأدباء وعلى حساب الأدب نفسه ، فكأنهم لم يحصلوا بعد على جواز سفرهم في هذا الكون ، وعليهم أن يثبتوا شخصيتهم .

ترى ما هو الأدب ومن هو الأديب ؟ ولماذا يكون هناك أدب وأدباء في عصر تفور فيه البشرية فوراناً ، كعصرنا هذا ، وتقتات بالقنابل وتتهيأ لحرب لا محل فيها لشاعر أو ناثر أو رسام ؟

وهل على الأديب أن يتطور مع الزمن ويسعى الى إلغاء وجوده ، أم أن الأحرى أن يتطور الزمن فيتسع للأدب والأدباء ؟

لا بد من الاعتراف مقدماً بفردية الأديب .

فليس من الممكن — ولعله ليس من الصالح — أن يتخلى الأديب الحق عن فرديته ، لأن أضخم تركات الذهن البشري خلقتها فردية الأدباء والشعراء والمنشئين .

والواقع أن روح التأليه للنظرة في الماضي كان قائماً على أسس غير صحيحة . لقد تدخلت النوازع والعنعنات فأفسدت الصورة الصحيحة للمنظر وشوهت العظمة الفردية ، لأنها أدخلت في ذلك الطوق كثيراً مما هو ليس بعظيم — اذا أردنا الدقة في التعبير — وكثيراً مما هو ليس بالجدير بالتقدير اطلاقاً ، وذلك ارضاء لأقل غرائز البشر حقاً في الارضاء ، من قبل أناس باعوا ذكاءهم في سبيل إغراء المال ، فسخروا أقلامهم وأذهانهم وفنهم في تخليد ما لا يستحق التخليد .

هذا صحيح كله .

ولكن الجوهر لا يزال صحيحاً أيضاً ، وهو أن فردية الأديب ضرورية لكي يكون خلاقاً .

فكم يستطيع أديب اليوم ، وفي عصر التفجير الذري وما وراءه من هلع الحرب المظنونة أن يحافظ على فرديته في انتاجه الأدبي ؟

لا شك في أن الأديب بمفهومه العام يحتل مكانة ملحوظة في الحياة المعاصرة ، بدليل كثرة ما ينشر ويطبع في العالم من النتاج الأدبي ، وبدليل ارتفاع مستوى ذلك الانتاج أيضاً .

فان دور النشر لا تني تطبع الكتب والدواوين بالرغم من ارتفاع سعر الورق والطباعة ، وبالتالي ارتفاع سعر المطبوع .

ولا يزال القراء يطلبون المزيد ، وهذا في حد ذاته دليل صحة ، كما يقول الأطباء .

ولكن الوجه الآخر للعلة ، هو أن الأديب أصبح مسؤولاً في عرف الكثيرين .

فهو مسؤول عن هموم البشرية التي لم يشترك في اقتراف آثامها ، وهو مسؤول عن تحقيق أحلام الانسانية التي لم يشترك في صوغها .

وعليـــه قبل كل شيء أن ينطق عن عصره الذي يعيش فيه دون أن يخدش ضمائر الذين ينتج خير آثاره لهم من قراء وزملاء عيش .

عليه آن يقول ويصدع بالحق دون أن يكشف الجراح ، وأن يسهم في طمأنة حاجة الأنسانية الى الدعة والنظر بعين التفاؤل الى المستقبل بما يرضى النـاس .

فهل يستطيع الأديب الحق أن يخون ضميره وإن ينطق بغير ما يشعر ؟

إن تجربة انخداع الأديب او محاولته الخديعة تجربة فاشلة من أساسها . فهو بذلك يتحول من خالق مبدع الى مهرج في بعض الأحيان ، ولن يكتب لنتاجه البقاء بله الخلود .

✡✡✡

وأنا أتحـدث عن الأدب بمفهومه العـام . وهو يضم جميع أمكانات الفكر البشري في عالم الكلمة .

والأديب هنا هو الشـــاعر والناثر والفنان في جميع أشكال محاولات الأداء الفني للانسانية .

ولا فرق في التفضيل او التقديم . فالكل مشتركون في مسؤولية الفكر والذهن . وعليهم الغرم إذا غرموا جميعاً .

ولا أقصد بالأدب مفهومه المحلي ، وإنما أقصد الأدب الانساني بمجموعه .

ولذلك فان الأزمة التي أعرض لهـا في هـذا المقام أزمة كبيرة واسعة سعة هذا الكون في هذه اللحظات الشائكة من حياته . وهي من قبيل هموم الانسانية المشتركة .

ولذلك فان ظلال هذه المحنة التي يتعرض لها الأدب موجودة في كل مكان ولعلها في العالم الواسع اكبر منها في عالمنا الضيق .

ولولا بعض الشارات الصغيرة الدالة على تحول منتظر في مستقبل الانسانية — وبخاصة في مجال تحريم الحروب والاتجاه نحو السلم بشكل ثابت — لكان من الصعب على المرء أن يتخيل مستقبلا للأدب منفصلاً عن سواه .

إن الأصالة في الأدب هي العلاج الذي يمكن أن يؤول الى الخروج من هذا المأزق .

فالأديب الأصيل المخلص لروحه هو الذي يستطيع أن يخلق الجو الرائق باصالته وباغنائه لعالم الروح ما يوازي عالم الجسد في عصرنا المادي هذا .

ولابد لهذا العالم أن يعترف بالأخير أن عالم الروح لا يقل كثافة وأهمية عن عالم الجسد ، وأن أهمية الرغيف لا تزيد كثيراً عن أهمية الكلمة .

مع الفلسفة

لقد تعودنا أن نذكر الفلسفة بشيء غير اعتيادي من الوجل ، وفي بعض الأحيان بالكثير من الاحترام المنبعث عن الخوف .

فنحن نحني رؤوسنا أمامها ، ونقطع القول لديها . فهناك فلسفة للحياة ، وفلسفة لكل شأن من شؤونها . حتى لقد أصبح هناك الآن مجال كاف لكي نقول (فلسفة الفلسفة) اذا قبلنا التجوز في التعبير .

وفي الواقع لماذا لا تكون هناك (فلسفة) للفلسفة ما دام بعض توافه الأمور استحقها من قبل ؟ وهي خلاصة ما يجب أن تدور حوله اجتهاداتنا الفكرية ، وما يستقطب أذهاننا ؟

ليس المقصود الآن أن نأخذ بالشرح والتفصيل جوانب الموضوع من ناحيته الأكاديمية . فهناك الكثير من الكتب المدرسية تفي بالغرض إذا كان مطلوباً . وإنما نقف وقفتنا هذه ، في سياحتنا الفكرية ، أمام هذه المؤسسة الذهنية . وقفة تصفية وتبرير .

فلماذا الفلسفة ؟

وما هي ؟

إذا قبلنا التعريف السائد الذي يقول بصفة العلم لهذا العصر ، بحيث يقال عنه أنه العصر العلمي ، فليس من الصعب أن تآخذ الفلسفة نفسها لبوس العلم (وهي أم العلم أصلاً) لكي تقف في الصف وتأخذ محلها .

وإذا كان وصف هذا العصر بالعلمية مقصوداً به تأليهه ورفعه عن غيره من العصور التي سبقته ، فلا ينقص منه أن يزداد ارتفاعاً باحتضانه للفلسفة ومعاييرها .

وقد كان القرن التاسع عشر بداية امبراطورية العلم حتى كانت صبغته هي السائدة عليـــه ، فماذا فعل ذلك في أمر الفلسفة ! وهل قلل ارتفاع شأن الحلم من شأنها !

قد يبدو في بعض الأحيـان أن التضارب بين الاثنين واقع ، وأن من يقول بالعلم لا يقبل القول بالفلسفة . وهذا أيضاً أمر مفروغ من أنه غير وارد ، كما يقول المناطقة والحقوقيون ، فالتجرد العلمي القائم على الحسبان والغـاء ما سـواها قد استنفد أغراضه في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن . وعاد كثير من العلماء أنفسهم الى إعطاء المزيد من التقدير للفلسفة .

لماذا الفلسفة ؟

لأنها تفرض نفسها في واقع الحيـاة . فهي لم تأت عفواً ، بل خلقت في التضاعيف ، وهي جواب طبيعي لتسـاؤل الانسانية منذ الأزل ، وستبقى الى آماد بعيدة منطلق الانسان للمعرفة .

الفلسفة كموجود ، وإن لا تتطلب الاثبات ، بالرغم من أنها لا تدرك بالحس القريب .

فهي ـــ كخط الاستواء ـــ شيء موهوم ، ولكنه أكثر وجوداً حسياً من بعض الملموسات .

وقد انقطع السبب الذي يقوم على ضرورة وجودها منـــذ أن انتهى عصر الجهالة والظلمات في القرون الوسطى .

ولم يضرها عصر العلم الحديث ، وإن ارتقى فيه جانب الحس والتجربة ، لأن جميع اولئك ينتهون الى الحقيقة التي هي مطلب الكل .

والحقيقة الفلسفية يمكن أن يتخيلها المدرك ، أما الحقيقة العلمية فهي قابلة للمس الحسي بالوسائل الانسانية والميكانيكية .

والفرق بين الحقيقة الفلسفية والحقيقة العلمية ، هو الفرق بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون .

فالكائن هو الواقع الذي يحيط به العلم من جميع أطرافه .

أما ما يجب أن يكون ، فهو الخيال الذي يحلم به فكر الانسان الرفيع . منذ خلقت البشرية ، وسيظل الى الأخير .

إنه النزوع الى المثل الأعلى .

✡✡✡

إذا ارتفع فكر الانسان وحلق في الأجواء العليا ، فانه يكون بذلك قد سار في الدرب الذي رسمته الفلسفة .

ومن الوهن أن نلجأ الى التعريفات القاموسية لتحديد مفهومها ، فليس ذلك من أغراض حديثنا ، ولا هو من قبيل ما يتوقعه السامع الكريم .

إن الفلسفة بمفهومها الشامل تمثل نزوع الانسان الأفضل الى الحقيقة الكبرى . وهذه مسيرة ذهنية طويلة ما زالت في طريقها المشع تزداد اتساعاً ويزداد الطريق طولاً .

ولا بد من القول أن الفلسفة العربيـــة قد سارت في الطريق الطويل أشواطاً كبيرة ، وأنها ما زالت تسير . وأنها أضافت الى مخلفات الذهن

الانساني تركة كبيرة يفخر بها العرب وتفخر بها الانسانية كلها .

إننا في هـذا العصر نمر من دور اجترار لا يتناسب مطلقاً مع تقدمه الذهني ، وفي بعض الأحيان يتناقض مع المرحلة الفذة التي وصل اليها عن طريق الكد العلمي المتواصل ، والذروة العالية التي بلغها بعد هذا الكد .

إن مظاهر التقطيع والتبضيع التي يكابدها ذهن الانسان المعاصر ، من جراء التمزق العاطفي والعصبي والذهني ، بسبب تراكم مظـاهر المدنيـــة وازدحام الحياة العصرية بما لا يتناسب مع متطلبات الحياة ، قد ترك فجوة كبيرة في حياة الفرد ، لم يستطع الانسان العادي في كل مكان أن يجتازها كما ينبغي .

إننا نشاهد كل يوم مظاهر متعددة من هذا التمزق ، يهولنا في بعض الأحيان مقدار ما فيها من نبو عن التعارف عليه من رقي الانسان . وهي في الواقع بسيطة التحليل .

فالفرد العصري الذي أصبح نهباً لكثير من الشد والجذب ، ما هو في الواقع الأ ضحية عصره المضطرب ، لأنه لم يستطع أن يرتفع الى المستوى الذي يفلسف فيه ذلك العصر بحيث يدرك اضطرابه .

وقد بلغ من حدة الشد والجذب أن الفرد المعاصر ، وهو يتململ تحت ضغط تلك الفجوة ، قد أخذ يكسر بعض القيود حتى بدا يرتكب الحماقات اولاً ، ثم الجرائم في الأخير .

الحنين الى المجهول

الفرق بين الانسان الأقدر والانسان الأفضل هو الفرق بين استيعاب الغيبيات بروح عالية ، وبين الرضوخ إليها كأنها عالم أوهام رهيب .

وأفضلية الانسان المتفوق تتجلى في قدرته على الغيبوبة المدركة التي يسعى إليها ذوو النفوس العميقة بطرق شتى .

وكلها تتجه . نحو المجهول .

ففى الانسان الشاعر حنين طبيعي أصيل نحو المجهول الأعلى ، ومنه يستمد الانسان المتجلى قدرته على الصعود والسموق — ومنه الى التسامى نحو الذروة .

والمجهول واحد للكل .

ولكنه يعني لكل نفس مشتهاها ، فاذا ارتفعت نحو الأعلى كانت ضمن المثل العليا ، وإذا لم ترتفع فهي في حظيرة الانسانية متى ما زادها الادراك والوعي قيمة .

والحنين الى المجهول هو بداية تفوق الانسان المدرك على نفسه ، وبالتالي ارتفاعه (في بعض الأحيان) الى القمة ، والى ذروتها في الأحيان القليلة جداً .

فمنه درج الأنبياء في صورهم ، ومنه يدرج النابغون في سيرهم نحو الأفضل . ومنه ايضاً تتخرج تلك الفئة الطويلة من الزعماء والقادة ذوي النظر البعيد ، والأثر الخالد في تاريخ الانسانية .

المجهول عند الصوفية يتهيكل حسب مفهومهم الحسي ، ودلالة ذلك واضحة في أقوالهم وأشعارهم . وهي من ذخائر الآداب واللغات كلها ولعل العربية أغزر من غيرها في هذا الباب .

والمجهول عند العلماء هو الذي أخفى عليهم تلك التسمية ، لأنهم مازالوا — وسوف يظلون — سائرين في طريقه . وكل ما يجنونه من ثمار في هذا الطريق الطويل سيظل صغيراً أمام حاجة الانسان وأمام قدرته ، وأمام طموحه نحو الرقي .

أما المجهول لدى الفنانين والشعراء والأدباء فهو رأسمالهم الأول والأخير وعلى ركيزته الكبرى يقوم انتاجهم في عالم الحال والاستقبال .

المعيار الحقيقي للفكر الانساني يقوم على أسس عديدة ليس هذا مجال سردها وتفصيلها . ولكنها — كلها — تؤول في النتيجة الى مقدار السموق في التفكير لدي الفرد ، ومدى ما يتمتع به من بصيرة نافذة .

والبصيرة النافذة هي تلك التي تستطيع أن ترى في « الغرفة الظلماء » ما تراه عدسة التصوير عندما تسجل الصورة . وقصار البصر لا نصيب لهم في مثل هذا الانجاز البشري المهم .

والظلام الذي تخرج منه الصور الآن بالطرق الميكانيكية ، هو ذلك المجهول الذي يسعى إليه الفكر الانساني بجهد منذ وجدت الحياة المدركة على الأرض . وهو المستقى والمنبع للمحلقين .

أما اللاصقون على الأرض ، فلا نصيب لهم في مجهول أو معلوم ،

لأنهم مجود أرقام متكررة لا غناء فيها .

العلم هو اكتشاف المجهول .

هـذا هو التعريف الساذج ، أو التعريف السطحي ، او تعريف القاء الحجة .

أما الحقيقة ، فان العلم هو زيادة رقعة المجهول بدون ضياع في الطريق .

فكلما زدنا معرفة أحطنا في الواقع بمقدار ما نجهل . وهذا هو تعريف العلم عند الاغريقيين الأوائل .

والضرب في أغوار المجهول بكل أشكاله الممكنة ، هو المسيرة الطبيعية للفكر الانساني المتقدم نحو الأعلى .

والوقوف نكبة .

أما الرجوع ، فهو الموت .

والانسانية مدينة لبضعة أفراد من أبنائها في هذا الاكتشـاف الدائم ، فهم الذين تقدموا في هذا السبيل فرادى . وعلى فجوات زمنية كانت متباعدة في بعض الأحيان ، ومزدحمة في بعضها الآخر .

هؤلاء الذين اضاؤا الطريق وفتحوا المسالك هم الذين اضافوا الى تاريخ الانسانية ما ترى فيه مجدها ، وهم الذين اولدوا المدنيات ، وسوف يرتقون بها . هؤلاء ليسوا من جنس واحد ولا من فئة واحدة .

إنهم مثل الانسانية عندما تتحرر من القيود الوضعية بجميع أشكالها .

وعلى هؤلاء يجب أن نفتش في زوايا الكون . عندما نعتبره دار سكن للانسانية كلها ، بلا حدود ولا قيود . فيتسع للبحث والاستقصاء .

الكون والعدم — سواء أكان ذلك سقراطياً ام وجودياً — هو اجتهاد بشري في تأويل سياحة الفكر في أرجاء المجهول .

والعدم — كما يقول الوجوديون أو بعضهم على الأقل — كينونة صغيرة في خضم الوجود .

أما المجهول ، فهو الذي يحيط بالاثنين لأنه في الحقيقة هو الواقع الذي قصر الذهن الانساني — بحالته الحاضرة — عن ادراكه . ولا فائدة من الدخول في التعاريف الآن .

في الشعر والأدب — كما هي الحال في الفن والموسيقى — انصهار في الحنين الي المجهول يعرفه كل من يتذوق هذه الانجازات البشرية حتى في صورها البدائية .

وقد غنيت اللغة العربية وآدابها القديمة في عصور الازدهار الفكري بنماذج كثيرة من ذلك الحنين .

أما الآداب الأخرى — ومن بينها أدب الغرب المتطور علمياً الى آفاق عالية — فانه بدأ بأرتقاء السلم القديم بعد الحرب الكونية الثانية .

إننا نسمع اليوم بالمصطرع الفكري الناشب ، وبالتسميات الكبرى ، ولا ندري أن هذه الهياكل الضخمة ، ما هي إلا خرز صغيرة في مسبحة طويلة كان يسبح بها رجال الفكر العرب الأوائل في زمن من الأزمان .

ومن مفارقات الدهر أن يسبح العالم اليوم في الفضاء الرحيب ، وكان اسلافنا قد اكتشفوه من قبل . وأخذنا نقتبس تسمياتهم ونسينا اننا اطلقنا تسمياتنا نحن على تلك المسميات قبل أن يعرفوا بها .

وهذا حزن أصابنا لأننا تأخرنا في اكتشاف المجهول . . . لأننا فقدنا الحنين الى المجهول .

الحنين الى المجهول هو علامة اليقظة الفكرية وحساسية الضمير . فاذا خلا الانسان منه خلا من الحاجة الى الحياة نفسها إذا كانت تعني شيئاً آخر

غير الشؤون العضوية .

وفي مجال مثل مجالنا الحاضر لا يمكن أن نري الطريق مفتوحاً أمامنا — وقد أزدحم بالسابلة الكثيرين . وكلهم اسرع منا — إلا إذا انفتحت افئدتنا الى المجهول الواسع الذي أتجهنا إليه عندما كنا وحدنا نشعر بذلك الحنين في يوم من الأيام . والذي افتقدناه اليوم بعد أن سبقتنا إليه الأرجل .

المجهول . سيبقى مجهولاً ، وسنبقى نسعى وراءه ، وستبقى البشرية كلها تسعى الى الوصول إليه .

والحنين إليه كالحياة نفسها ، لا يمكن أن يشعر الانسان بلذتها إلا لذاتها ، أما إذا أراد أن يجد مغزى آخر يستوحي منه اللذة ، فلن يجد شيئاً .

إنه كالكنز الموهوم . تسعى للوصول إليه يدفعك الأمل ، فتشعر في الطريق بالسعادة العظمى .

أما خيبة الأمل . فهي عندما تصل الى الكنز نفسه ، لأنه سيكون آنذاك خواء . وهباء تذروه الرياح .

تقييم المدنية

لا جدال في أن المدنية (بمفهومها الواسع) أول شهادة نالها الانسان لكي يستحق بها تفوقه على بقية المخلوقات .

فليس هناك سوى الانسان يستطع ، أو استطاع ، أن يخلق مدنية ما . كما أنه ليس هناك احتمال أن يكون ذلك ممكناً في أي وقت مقبل بدون الانسان .

فالمدينة — وهي غلاف المدنية وبها سميت — انجاز الانسان الأول ، وارتفاع مستواها هو دليله الثابت الآخر على أنه يستحق الأولوية في هذا العالم .

ولا نريد أن نتعمق في التحليل والتسلسل الذي يقتضيه تقييم المدنية ابتداء من تعريفها ، فان ذلك يحتاج الى مجال أوسع ومدى أعمق . ولكننا نفرض في البداية أن المفهوم المطلوب للمدنية — باعتبار أن مدنية القرن العشرين التي نعايشها أحسن الأمثلة الحية لذلك الغرض — متفق عليه ابتداء ، لكي نخوض في الكلام عنها ، وعن قيمتها حاضراً ومستقبلاً .

فاذا عرفنا أن المدنية نفسها تقوم على أساس القيم ، وأن الانسان لو لم تكن له تلك الحاسة التي تتألف من جماع الحواس الخمسة والتي تستند عليها

نظرته في التقييم ، لما استطاع أن يبني مدنيته ، أدركنا بالنتيجة أن القيم هي لب المدنيات كلها ، سواء منها ما ثبت واقعياً ، أو الذي طوته الأيام .

✡✡✡

والمدنية الحاضرة — إذا ضربنا صفحاً عن القول القائل بأنها ليست الأولى ، وهو قول شائك يستدعي اكثر من دليل — قد تكون آخر المدنيات حسب قياسات زمنها ، أي أنها إذا كانت ستسير على هذه النسبة من التقدم ، فلابد أن تصل في النهاية الى الطريق المسدود .

والتقدم الذي نعنيه ، والذي يدخل سباق كلامنا هذا — هو ارتفاعها عمودياً في العلم كما هو الحال منذ منتصف القرن العشرين ، حيث جرى ذلك التسابق الهائل بين الحاجة والضرورة .

وسيطرة العلم التامة في كسب الجولة ، ذلك معناه أن الحاجات ستقف في صف واحد ، ويقف أمامها طلب الانسان الذي يظل زمنا طويلاً يلحف في طمأنة حاجاته ويتسابق زمنياً بلا جدوى .

والواقع أن مأزق المدنية الحاضرة في هذا السباق قد اطاح بها بعيداً عن جوهرها . فصار الاندفاع في بعض الأحيان غاية بعد أن كان وسيلة ، وصار الفوز على الزمن مقنعاً للمتسابقين ، دون أن يكون هناك هدف اكبر ينطوي ذلك السباق عليه .

وقد خسر الانسان في هذه الجولة خسارة أصبح رجل الشارع يلحظها ، بله الفيلسوف والمفكر . فالكثيرون منا يلمسون الآن أن السعادة — ولنتجاوز قليلاً مفهومها كتعريف ثابت — لم تعد هي هدف المدنية ، لأن الحاجة الى التسابق قد تجاوزتها ، وغفل عنها انسان القرن العشرين وهو في دوامته الفكرية فلم يعد يجعلها هدفه الأول .

وقد امتاز مطلع القرن العشرين بفئة من المفكرين ينظرون الى المدنية نظرة تشاؤم وخوف . وكان كثير من تطلعاتهم الى المستقبل مشوباً بالرهبة من ذلك السباق الذي لا يعرف أحد مداه ، حتى لقد كان (شوينهور) نبي الفكر في وقت ما ، ولم تكن عدته سوى تلك النظرة السوداء دون أن تكون مرتكزة على واقع .

وتلون أدب نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بذلك اللون القاتم مدة طويلة . واستمرت مأساوية العصر مسافة زمنية اطول مما كان يجب أن تطول للسبب نفسه ، حتى جاءت الحرب الأولى فألهت الناس عن التفكير بالناحية السيئة من الحياة ، لأن الانسان كان قد أوغل فيها فعلاً ، ووجد الكثيرون أن ذلك التشاؤم كان له ما يبرره

فلما جاء دور النقاهة من الحرب الأولى مشوباً بتخوف ظاهر من حرب أخرى ، ثم جاءت الحرب الثانية بأقسى من الأولى ، تركزت افكار الكثيرين على أن المدنية وليد مشؤوم ، وأن الانسانية كانت تصل الى هدفها من السعادة بدون مثل هذه المدنية الصاخبة التي انتجت حربين كاسحتين ، وتوقعاً ملتهباً لحرب كاسحة أخرى .

في مثل هذا الجو المرعب يصعب كثيراً أن يقرر المرء بهدوء وبدون انفعال كيف يتسنى له أن يقيم هذه المدنية .

ومع ذلك فمن الممكن أن يكون المرء موضوعياً في هذا التقيم .

من الممكن أن يكون الرأي أن المدنية فرضت نفسها كأية ظاهرة طبيعية ، وأن تكون الفروق الممكنة التي يراها بعض المفكرين في التفاصيل بين المدنيات السابقة المحتملة ، تافهة لا تستحق الخلاف ، وبذلك يصحح الانسان

موقفه منها ، ويحاول أن يكيفها أو يتكيف بها .

فالحقيقة أن الانسان نفسه هو المشكلة لا غلافه الخارجي . والمدنية بهذا المآل لا تعدو أن تكون ذلك الغلاف .

إذا كان الانسان « يريد » ـــ كما يعبر الوجوديون ـــ فان الوضع يصبح مختلفاً جداً ، فتكون المدنية آلة بيده .

أما اذا جعل منها ازمته ، كما يبدو في كثير من الأحيان ، فسوف يكون هو ضحيتها ، وتبلغ المأساة ذروتها ، لأن كل فرد في هـذه الحالة سيحمل على كتفيه ثقل البشرية كلها في تلك المأساة .

الانسان الذي اغفلته المدنية في بداية هـذا القرن . سيعود الى نفسه كرة أخرى ، وليس من الضروري أن تكون هناك ردة ضد المدنية نفسها ، ولكن مما لا شك فيه أنه سينصرف الى المعنويات كثيراً ، وسيقف هـذا السباق المجنون نحو كسب الوقت بلا هدف .

يقول « ممفورد » في كتابه عن شكل المدنية المقبلة ، إنها ستكون مدنية سيكولوجيـة لا بيولوجية . ومعنى ذلك أن البيت الذي سوف يطمئن حاجة الانسـان المقبل سيختلف شكله عن البيت الحالي ـــ وبالتالي ستختلف المدن بالتبعية ـــ لأنه لن يأبه لما يرضي نوازعه الدنيـا كما هو الحال الآن من حيث المأكل والمشرب ، ولكن سيحاول أن يرضي غرائزه المتسامية صعوداً مع تقدمه الفكري .

ربما آل الأمر الى أن يبني المرء لنفسه صومعة من نوع ما في بيتـه ، او مظهراً بشكل ما . أو ربما علت السقوف الى درجة غير معقولة أو آثر الانســان أن يعيش في سراديب وأنفاق تحت الأرض بدلاً من الارتفاع لخرق السحب .

وقد يكون هـــذا كله من قبيل التوجس وكل قيمته أنه يسجل نزوع انسان هذا العصر الى طلب التغيير عما هو عليـه الآن . وهو شيء يستحق التسجيل حتماً .

وقيمة هـــذا التغيير تتفق صعوداً مع ارتفاع نزوعه نحو التجريد ، وانعتاقه شيئاً فشيئاً من عبودية المادية .

مع الفن

ترددت كثيراً في هذه السياحة مع الفن لكثرة من دخل في سياقها من قبل ، ولكثرة ما قيل فى هذا الموضوع من جانب كبار النقاد والمفكرين .

ولكن المسيرة ضرورية . ولا ضير من مكرور القول اذا كان جميلاً وقعه . والكلام عن الفن يصبح جميلاً اذا ابتعد قليلاً عن الضرورات الزمنية الآنية ، واقترب من المثل العليا .

والواقع اننا اذا قسنا المسيرة الفكرية التي سارها الفن نجد أن القيود التي ساورته كانت أقل من تلك التي قيدت الذهن بأنماطه الأخرى من أدب وفن . وذلك لأنه كان أبعد منالاً من أن يصل المتحكمون الى ادراكه ، وخيل للكثير منهم أنه يمكن تجاوزه لقلة خطره ، ورأى آخرون أنه غير وارد إطلاقاً .

ولذلك فقد انحصرت الرقابة الفكرية في أطوارها المتعددة في الشؤون الأدبية من شعر ونثر وقل أن وصلت الى النتاج الفني ، لأنه يستنفد طاقته في الطريق بسبب الشرح والتأويل الذي يقتضيه طابعه وتركيبه .

وقد ظلت الحرب بين الرقابة والنتاج الفكري الانساني في حالة مد

وجـزر ، ولكن الرقابة ظلت تتراجع — وما زالت — ببطء . ولا شـك في أن النهاية الحتمية ستكون التسليم بلا قيد أو شرط من جانبها أمام الحرية الشاملة للفكر الانساني .

الجانب الجميل في الطبيعة خلقه الانسان العبقري .

أما الطبيعة الفجة التي لم تتناولها يد الانسان الفنـــان ، فكل ما فيها يبعث على الهول والرعب .

والصراع المديد بين عمل الانسان وبين الطبيعة هو مســـيرة الفن في هذه الدنيا .

وقد قال أوسكار وايلد ذلك في كثير من مقالاته ، ولا يزال الكثيرون يرون أنه كان مخطئاً . وبينهم فنانون كبار .

فالجميل من الطبيعة . . ماذا سيكون منه لو تناوله فنان ضعيف ؟

سيكون الأثر ضعيفاً لا يخلد .

أما اذا أخـذ الفنان العبقري موضوعاً من الطبيعة — وليكن بلا جمال موصوف — فانه يستطيع أن يخلق من ذلك أثراً قد يكون خالداً .

الطبيعة مادة الفنان ، والفنان نتاج الطبيعة مهما قيل في علوه وانخفاضه . واختلاف الفنانين في الواقع إنما هو اختلاف في الجبلات والأوضاع وكلها يتحصل من اختلاف الطبيعة بالنسبة للفرد والمجموع .

الفن اقتراب من اللانهائي والمجهول . والوسيلة التي ارتادها البشر حتى الآن اختلفت باختلاف العصور ولكنها ظلت على طبيعتها الانسانية المطلقة ، لأنها تمثل حاجة طبيعية في الانسان المرتفع الذي يريد أن يظل في ارتفاعه نحو الأعلى .

والزهرة تحمـل في وريقاتها الخفيفة إنجذاباً نحو ذلك المجهـول يحس

به كل انسان يرتفع قليلاً فوق الحيوانية ، ولكن الذي يستطيع أن يسجل ذلك الاحساس بشكله المتفوق هو الانسان الفنان .

ولم تستطع البشرية — حتى في عهد الكهوف والمغاور — أن تستغني عن ذلك الانسان الفنان . فما نزال نرى في بعض الآثار القديمة ما تركه ذلك الانسان من نتاج فني ، وكان من دون شك فوق مستوى زمنه .

فالفنان — دائماً — فوق مستوى زمنه وعصره .

اقترن الفن دائماً باللذة . وضاع كثير من القيم الفنية بين معيارها المتعارف عليه .

وإذا عدنا الى التعاريف مرة أخرى ، فان اللذة مقتصرة على الجانب الحسي ، من حياة الانسان ، ومشدودة الى الحاجة والضرورة . وكل لذة يمكن ارجاعها الى تحديدات الجسم من دون روح في كثير من الاحيان .

اما اللذة الروحية ، فقد عرفها البشر عن طريق الصوفية والانشراح الفكري في جميع الازمان . ولكن الفن بتحديده القاموسي لم يتحدد ولم يقف في مسيرته المنطلقة طيلة العصور . ونحن نجد اليوم أن نهاية هذه المسيرة قد تصل الى شاطىء العلم المقنن . فكثير من ذوي الرأي يرون أن الفن سيصبح علماً ثابت الاركان والحدود ، في الوقت الذي تميع كثير من العلوم لكي تدخل في باب الفن .

نجد اليوم أن علماً كعلم الريازة والمعمار — وهو علم يدرس في الجامعات في فهرست العلوم — دخل في مضمار الأدب حتى فتحت الصحف الادبية أبوابها له لجزء من مادتها الثابتة .

ونجد أن التصـــوير الفوتوغرافي ـــ وهو صناعة يدوية تعتمد على الحسيات ومادتها ميكانيكية ـــ اخذت طريقها الواسع نحو الفن الأصيل .

فكيف حدث هذا الاختلاط ؟

الجواب ان الحاجة الى الفن هي الأصل . وان الوسيلة تبقى على الدوام ثانوية لا قيمة لها .

فالانسان بطبيعته يدرك الفن ويحتاج اليه . اما الوسيلة لطمأنة هـــذه هذه الحاجة فستبقى على الدوام قابلة للتطور والتغير والتوايد .

✡✡✡

الفن جواب آخر للتساؤل عن المجهول ، عن طريق الجمال والجمالية .

وفي « الجمالية » يقول القاموس انها جانب من الفلسفة التي تعنى بطبيعة الجميل والحكم على الجمال . وهي وصف وايضاح المظهر الفنى الجمالي بوسائل العلم الأخرى ، كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاجنـاس وعلم التاريخ وغيرهـا .

فهل ادرك الفن غايته ؟

وما هي قيمة الفن في حياتنا ؟

وما هو مستقبل الفن ؟

✡✡✡

لاشك أن الفن لا يزال يحبو ، حتى في المضامير التي لا نعرفها ولا نعهدها وغايته أبعـــد من أن نصل اليها ـــ لأنهـا كباقي المؤسسات الفكرية الأخرى ـــ لا يمكن الوصول اليها مهما طال الكد ، فلن يستطيع الانسان بلوغ الكمال . ولن يصلها إلا إذا كان الكمال متيسراً ، وهو محال .

فالفن في حرب صغيرة نحو الوصول الى الوهم الكبير .. وهم الكمال .

وكل فن يتقرب الى هذا الوهم يصبح داخلاً في حيز امكانية الخلود ، الذي هو غاية الفن .

أما قيمة الفن في حياتنا ، فهي تكمن في حياتنـــا نفسها . وإذا ما ارتفعت حياة المرء الى الأسمى اقتربت من ذلك الوهم الكبير . وانتفت الحاجة معها الى القيم الوضيعة التي يركض وراءها اللاهثون دوماً على سطح الأرض .

ومستقبل الفن واسع عظيم . كمستقبل الانسانية إذا نظرنا إليه من جانبه الكبير .

إن الانسـان يسعى نحو الكمال لأنه يعرف أن ذلك الكمال ينطوي على الأفضل . ومهما طال المسير فانه سيظل هو الهدف من الكد الطويل .

✡✡✡

هل يجب أن يكون الفنان شيئاً آخر غير طبيعته ؟

أو بعبارة أخرى هل من اللازم أن يكون الفنان فناناً وزيادة ؟

واذا قل معيار الفنان من الاضافات فهل سيكون لذلك أثر على فنه ؟

وان عصرنا الحاضر لا يحتمل أن يقـل معيار المسـاهم فيه ـــ سـواء عن طريق الفكر أم غيره ـــ دون حاجات العصر من ارتفاع وســـموق ولذلك ، فقـد أصبح فنان هـذا العصر من ذلك النوع الذي يحتوي الفن وما فوقه . وهـــذا هو السبب في اننـا نرى في كثير من الفنون تخريجات مذهلة لا يسع الانسان أن يقبلها فوراً ، او أن يزدردها على طريقة النسيئة .

فالحق ان تعقيدات الحياة ألقت ضوءها على الفن نفسه ، فأصبح يتسم هو أيضاً بذلك الطالع المعقد . واقتضى أن يشـرحه الخبيرون . . ومع كثير من هذه الشروح بقيت زوايا كثيرة مستعصية على أغلبنا .

ان الثـورة على أشكال الفن الجـديدة لن تؤدي الى نتيجة لأنها ستبقى ما بقيت حياتنا في مسيرتنا هذه. وستبقى كذلك مسيرة الفن معها شاقة وان كانت في أغلب الأحايين لذيذة.

ولكنها تحتاج الى شرح ممن يفهمون الفن على حقيقته.

لماذا الكتاب ؟

وهنا يأتينا شخص (الكتاب) وشخصيته . فلماذا الكتاب ؟ وماذا هو ؟

يقول سومرست : « إن الكتاب أعظم انجاز للانسان » .

فلا الصعود الى القمر ، ولا النزول الى أعماق البحار ، يخرج — في الواقع — عن جولة الفكر الانساني في كتاب صغير .

وقال مالكولم مكرج في آخر ما كتب : « إنني لا أعتبر التقدم شيئاً ذا بال . فالعلم الذي يفخر بأنه يوصلني الى القمر ، لا يدري بأن حبة رمل في الصحراء تعني أكثر من ذلك » .

وكلنا نريد المزيد من كل شيء . واكثرنا قناعة أولئك الذين يريدون المزيد من المادة لأنها محدودة بالارقام . أما الذين يشغفون بالمزيد من الدقة ، فهم في الحقيقة الجشعون الذين لا نهاية لجشعهم ونهمهم . والصورة المرعبة حقاً هي صورة ذلك النهم الذي يزداد رباعاً لا ضعفاً . ويدخل في الحلقة المفرغة .

وما دمنا في هذا الطلب . وما دامت المعرفة كالهواء الطلق ، فلماذا لا نستنشق النقي منه حسب حاجتنا ؟

نصل هنا ما انقطع من الحديث عن الفلسفة وسياحتنا الفكرية معها فما هي الفلسفة ؟

هي (الماهية) التي نشأت في البداية تطلعاً نحو الاجابة عن الأسئلة الخالدة التي لا تزال تنطلق من أعماق عمق الانسان :

لماذا ؟

وكيف ؟

وماذا ؟

(ما هو) هو التساؤل الدائم ، ومنه جاءت (الماهية) أس الفلسفة . وقد وقف العلم وقفة المطيع الذي يحاول اجابة الطلب عند كل تسآل .

فالفلسفة هي محاولة الانسان أن يسلسل الادراك بكيفية تقنعه هو قبل غيره أن الجواب سيرضي تطلعه الدائم دون أن يكون ذلك الجواب مرضياً للحقيقة أولاً .

الرغبة في المعرفة جوع إنساني يرجع في تاريخه الى قدم الانسانية نفسها ، والرغبة في طمأنة هذه الحاجة لم تقل طرداً أو عكساً . فقد تقدم الانسان في مجالات العلوم تقدماً ليس بالقليل . ولكن التطلع الى المعرفة الكبرى لم يقل .

زاد تقدم الانسان في مجال المعرفة ، ولكن حاجته الى المزيد منها زاد هو الآخر بنفس المقدار .

✡✡✡

ماذا كان من موقف الفلسفات عند ما تتضارب في الاجابة عن نفس التسآل ؟

لماذا لا يزال الانسان يريد الجواب .. الجواب نفسه على السؤال ، السؤال

نفسه ، وقد أجاب عنه كثيرون من قبل إجابات متعددة مختلفة ؟

لماذا يريد الانسان أن يعرف مغزى الحياة في خضم فلسفات المتفائلين مثلاً ، وقد أجاب عنه فلاسفة متشائمون إجابات مستفيضة من قبل ؟

إن الجواب عن هذه الأسئلة ليس بالصعب ، ولكن ازدراد الجواب هو الصعب .

إن الانسان يريد المعرفة ، ولكنه لا يمكن أن يريد التنقل في هذه المعرفة .

ولو كان يريد نقطة معينة من تعطشه الدائم لتلك المعرفة ، فلابد أنه كان قد وصلها منذ زمن بعيد عن طريق العلم والحسيات ، وكان آنذاك يصل الى حد اللا رجوع ، أو الى حد بلوغ النهاية الكاملة ، وهو أمر ترده الفلسفة على أعقابه ، لأنه لا كمال في الدنيا .

واذا ما أمكن أن يصل الانسان الى الكمال فانه — بذاك — يكون قد وصل الى نهاية الدنيا .. ولا نهاية للدنيا بطبيعة الحال .

✡✡✡

المسيرة مع الفلسفة طويلة وشاقة ، ولكنها لابد منها في جميع الأحوال . وقد بدا في وقت من الأوقات أنها كانت قد خسرت المعركة ، حتى تلطخت في كثير من الأحيان بالدماء .

ولكن النتيجة أننا اليوم نفتح صدورنا لها كما نفتح أذهاننا .

إننا اليوم في حاجة الى أن نعمق شعورنا الفلسفي في جميع مظاهر حياتنا .. حتى التوافه منها .

والتوافه قد تبدو توافه . ولكنها هي الهياكل المجوفة لكل الأمور الجسيمة . فليس هناك أمر جسيم لا يبدو تافهاً في وقت من الأوقات .

إننا محتاجون الى أن ندرك عصرنا . ونفهم اضطرابه الفلسفي ، لكي نستطيع أن نتثبت من مواقع أقدامنا .

وقد يأتي يوم تتطلب فيه الحياة من كل فرد أن يكون فيلسوفاً ، لكي يمكن له أن يقف على قدميه في خضم الحياة المتجهة دائماً نحو التقدم والارتفاع . وليس معنى ذلك أن يضع المرء تحت أبطه نسخة من كتب الفلسفة الكلاسيكية ، ويطيل شعره ، بل أن يجعل في صدره محكمة صغيرة يحاكم بها الحوادث ، ويترك القرار فيها لحاكم فيلسوف يهمس بتلك الأحكام همساً في أذنيه .

ان الفلسفة — بكل تعاريفها — لم تتراجع ولم تتصاغر قط . وهي لن تكابد ذلك في مستقبل قريب أو بعيد . بل لعل العكس هو الأصح . فكلما زاد قدر الانسان علمياً ، زاد قرباً من الفلسفة . . وتقرباً اليها .

ونحن لا نتفضل عليها بالتقرب منها ، وإنما سيكون طريقنا نحوها على سبيل الاضطرار لا الاختيار .

وفي اليوم الذي يفشل فيه المرء في اصدار الحكم المطلوب ، في الوقت المطلوب . . فسوف تتكرر الحوادث المؤسفة التي نسمع بها في هذه الأيام . . ونكاد لا نفهم أسبابها .

سنفهم عند ذاك أن هذا الذي نشاهده كل يوم مما ينبو عن المنطق والعقل ، ما هو إلا متاهة صغيرة يتيه فيها الانسان — كما تاه اولئك التائهون في صحراء سيناء — لأنه لم يعد يعرف موطىء قدميه . وانه في اللحظة التي يجد فيها نار الهداية الى الطريق الصحيح ، تدب القوة في خطوه ، ويرتفع رأسه وهو يتجه بثبات نحو الجادة .

بعد الفلسفة . . نعود الى الأدب .

فلماذا الأدب وما هو ؟

ولا شك أن هذا السؤال قديم قدم السؤال عن الفلسفة . ولكنه يتجدد عند كل فترة انقضاض علمي تحيل الانسان الى مستطلع خائف ، كما هي الحال في عصرنا هذا ، ونحن نشاهد مظاهر هذا الانقضاض العلمي بأعيننا كل يوم .

وهنا أيضاً يجب أن نتجاوز الدخول في المأزق الضيق للتعاريف الكلاسيكية . ويكفي أن نقبل مبدئياً فكرة (الأدب) على وجهها العام مفهومة ومقبولة لدى الجميع .

فالأدب في خطه العريض هو وجه الحياة على الورق . فالشعر والنثر وما بينهما من أفانين القول والادراك ، ما هي إلا تسجيل للحياة — او على الأصح لبعض لمحات من الحياة — في بطون الكتب والصحف ، ولا علينا من احتلاف أوجه النظر في ماهية ذلك الوجه وما يقال فيه من تقنين واجتهاد المجتهدين على اختلاف نواياهم ونزعاتهم .

ولابد من الرجوع الى قول القائلين ان مسيرة الحياة كانت لا تتأثر بشيء لو أن الأدب لم يكن ، أو أنه كان أقل أثراً وأقل احتفالاً به من جانب الناس ؛ لكي نرد على هذا القول الرد الصحيح .

فاذا شققنا المنطق شقين ، وقلنا ان هناك شيئاً اسمه الأدب ، وآخر ليس أدباً — وهو امر يتنافى مع المنطق وطبيعة الأشياء — فان الأدب نفسه يستحق وجوده بواقع الحال ، إن لم يكن يستحق الوجود لما وجد ، أو لوجد ثم زال سريعاً ، أو بقى على غير ما هو عليه من نمو وازدياد . فهو باق باستحقاقه للبقاء ، وكل الدلائل تدل على أنه يحمل في ثناياه ديمومته مع الحياة ، ومقدرته على النماء والاضطراد .

الأدب جزء مهم من « المعرفة » ، وان كان لا يستهدفها في مسيرته .

وهو حاجة قبل أن يكون ظاهرة . . كما أخطأ في تعريفه الكثيرون .

واذا كان لكل شيء فائدة — حسب التقنين والاجتهاد الزمني — فالأدب هو الفائدة نفسها من الحياة كلها .

وإلا فما هي « فائدة » الفائدة اذا أردنا الارتفاع بالحياة فوق الحيوانية التي لا يعقل أن يجعلها أحد هدفاً من الأهداف !

ان عمر كل فائدة من الفوائد محصور بين نطاقين أحدهما البداية والآخر النهاية . فاذا حصلت على الشيء فتلك بداية الفائدة منه ، واذا استنفدت غايتك منه فتلك نهايته . والمرء يستهلك في حياته كثيراً من « الفوائد » تكون حصيلها في بعض الأحيان نفايات لا تسترعي انتباه أحد ، وفي مقدمتهم من استفاد منها .

ولا ديمومة لمثل هذه الفائدة ، بل تكاد نكون لا معنى لها .

أما فائدة الأدب فهي كامنة فيه .

الأدب — كالتنفس — يدل على الحياة ولا يصح أن يوضع موضع التساؤل عن مقدار ما فيه من « فائدة » لأنه هو الأس . وأولئك الذين يريدون أن تكون هناك للأدب فائدة يدلون على جهل عميق بطبيعة الأشياء .

لا « فائدة » للأدب لأنه ليس من المطلوب أن تكون له فائدة .

انه أكبر من ذلك .

هل نحن في عصر نهضة فكرية «رينصانص»؟

النهضة بتعبيرها العلمي مظاهرة قام بها الفكر البشري بصورة مجتمعة للتطلع نحو الأفضل ، ونحو الأسمى.

وعندما تتمايز الصور فيما بينها ، فسيبقى القرن التاسع عشر أفضلها طراً ، لأن فيه قامت النهضة « الرينصاص » واليه ينتمي سموق الفكر الانساني وايقاعه ، وبمقياسه يقاس.

وقد ارتفع معيار عصرنا هذا بارتفاع مستواه العلمي ارتفاعاً لم يكن أحد ليتصوره سوى بعض ذوي الاشراق العلمي — وهم أفذاذ قلائل — ولعله ماض في هذه المسيرة الكبيرة الى حد يفوق التصور.

فهل يا ترى يمكن أن يقال عن عصرنا هذا انه عصر « نهضة » فكرية أكبر من نهضة القرن التاسع عشر ، بمقدار ما يتفوق هذا العصر عليه من مراحل العلم ؟

قد يكون الجواب الجاهز لدى الكثيرين منا بالايجاب السريع. وقد يكون ذلك حقاً في جوهره. ولكن نظرة متئدة الى لب الموضوع ، تميل بنا الى التردد قليلاً في هذا الموضوع.

ان النهضة الفكرية ــ كما هي تسميتها بالطبع ــ تعتمد على الفكر. والعلم من شعب الفكر الأولى. فلماذا لا يكون هذا التقدم العلمي الهائل دليلاً على التقدم الفكري عامة ، وفي جميع المناحي ؟

للجواب عن هذا السؤال ينبغي أن نغور قليلاً في التفريق المكروسكوبي بين الاندفاع العلمي وبين البواعث عليه.

ان الاندفاع العلمي ، باعتماده على التجربة الحسية التي تستفيد من الخطأ لكي تصل الى الصواب ، يتوقف هو الآخر على البواعث التي تدفع بالانسان لكي يغور في الأعماق.

فما هي تلك البواعث ؟

لقد كان الباعث على « النهضة » في القرن التاسع عشر نابعاً من شعور ذلك العصر وتحسسه بالمثاليات. أما الباعث الذي يدفع بعالم هذا العصر ، فهو حاجة الفرد والمجتمع الى اثبات الارادة الصلبة عن طريق الحروب والمنافسات. وقد جاء العلم كالخادم الأجير لكي ينفذ الرغبات البشرية ، ولم تكن كلها صافية لخير الانسانية ، بل لعل العكس هو الصحيح في غالبية الأمور.

كان الانسان في القرن التاسع عشر عبداً لكثير من المعنويات القائمة على فروسية ذلك العصر دون تشويه.

أما انسان القرن العشرين فلم يعد يرضيه أن يقنع بالمعنويات المثالية ، لأنه تدرج بالمعرفة عن طريق الحسيات ، فأصبح يرى ان المثالية طريق مسدود ، وأن التقدم الذي يقتضيه العصر يحتم عليه أن يفتح آفاقاً جديدة ليخترق تلك السدود.

واستخدم في سبيل ذلك كل ذكائه وخبرته. وفقدت القيم سحرها الماضي لأن انسان هذا العصر استمرأ طريقة التشكك التي أوصلته بتجاربها

الحسية الى كثير من الرقي المادي. ولم يفهم أن هذا الرقي المبني على الحسيات يزداد نهماً كلما زاد حجماً. فاذا توصل في عالم السرعة الى مضاعفة الموجود فانه يريد مضاعفة المضاعف. ولا نهاية لمثل هذا النهم الانساني.

ان المثاليات التي جاء بها عصر النهضة الماضي، اختلطت بجنون الرغبة في استمرارية التقدم مهما كلف هذا التقدم من تضحيات في الطريق. وعادت التجربة الحسية في بعض الأحيان بانسان هذا العصر الى انسان القرن الثاني عشر عندما كان مجرد آلة أو كما قال ديدرو «ان الانسان مجرد شكل خاص من أشكال المادة».

ليست النهضة بمفهوم «الرينصانص» مجرد رغبة في سبيل التغيير نحو الأحسن، بل لابد لمثل هذه الرغبة الجامحة أن تكون مرتكزة على أسس يحدد لها أصحابها أسباب التذمر.

ولو قسنا بمقياس مكروسكوبي تلك القرون بين عصور الرضى المبنى على الجهل، وعصور التذمر المبنى على العلم، لوجدنا أن ما نريده من السعادة متوفر في العصور الأولى ولكن ثمنها الجهل، وأن القلق يشيد الثانية وان كان مصدره العلم.

ان من اللازم أن نعرف ما نريد بحدوده الكلية قبل أن نعلن غضبنا على ما هو موجود بتفاصيله.

ومن اللازم أن نفرق بين الشك والتشكك. فكل ما ينتجه الشك هو القلق البحت الذي يؤول الى تدمير النفس، في حين أن التشكك قد يكون باباً من الأبواب المفتوحة على مصراعيها نحو المعرفة اليقينية. كما نرى ذلك في أغلب أبواب العلم.

ان التظاهر بالغضب من بعض الأمور بقصد التعالي قد أصبح من مظاهر هذا العصر الذي لم يعد يخجل من التصنع لكثرة ما فيه مما يدعو بالأوساط — وهم الكثرة النسبية بين المثقفين — الى الادعاء بأنهم غير قانعين بالحاضر ، وانهم يريدون الأفضل عن طريق التغيير اللامحدود ، بقصد الظهور بالمظهر المميز ، لا بقصد الوصول الى الحقيقة .

✡✡✡

اننا اذا رجعنا الى المخلدات الأدبية في مختلف الأمم نجد أن كثيراً مما تركه العباقرة كان في تلك العصور التي ندعوها الآن بعصور الظلام .

وفي عصرنا الحاضر — عصر الذرة والتقدم العلمي المريع — لا نجد تساوقاً بين ذلك المدى الكبير في التقدم العلمي الذي أخذ الآن يذهل الانسان نفسه ، وبين ما هو مفروض في مثل هذا الانسان من تقدم يتناسب معه في مضي الانسانية نفسها .

ان الانسان — الآلة بلغ ذروة كبيرة في تقدمه الحسي ، ولكنه أخذ يشكو النقص الروحي في أكثر أوساطه رقياً — وهو الغرب المفتوح على مصراعيه — ونسمع الآن فحيح المتألمين من مفكريه وهم يكادون يقولون بملء أفواههم : أعطونا راحة الفكر وخذوا منا ما وصلنا اليه من تقدم حسي .

ويقول « سالكرو » « انني لا أستطيع أن أؤمن بالكمال الانساني إلا اذا جاء على غرار الكمال الآلهي وبوحي من الهامه . فاذا كان الريب والتشكك هو زاد الطريق في المسير فما أشقى هذه الرحلة وما أعظم مأساة ذلك الطريق » .

✡✡✡

ان شقاء الروح أوجع وأعمق ألماً من شقاء الجسد . وقد يمكن أن

يشفى مريض بمرض عصي ولا يشفى مريض من أمراض الوهم. ولا تزال الأمراض النفسية أعصى على الشفاء من الأمراض الجسدية، وهذا ما نراه رأى المعاينة كل يوم لا في صحراء الجزيرة العربية حيث يسود العصر المتخلف حسب القياسات العصرية، ولكن في مغاني أوربا وبلاد النورديك، وفي أرقى مناطق الانسان العصري تحضراً.

وهو جانب آخر من جوانب المأساة التي استعصت على الشفاء.

ولا بأس — بعد ذلك — من المزيد من العافية!

وسيلة المطالعة بقيت هي الوسيلة الأولى على مر العصور بين وسائل المعرفة. وما الدرس والتحصيل إلا الشكل المصطلح عليها.

لابد من كلمة أخرى أضع فيها يدي بيد القارىء الكريم، لكي نخطو بعض خطوات معاً.. ثم اذا شاء أحدنا أن ينفرد لكي يطلق العنان لخواطره وأحاسيسه.. فليكن.

كلنا نريد المزيد.. والمزيد من كل شيء. وأكثرنا قناعة أولئك الذين يريدون المزيد من المادة، لأنها محدودة بأرقامها. أما الذين يشغفون بالمزيد من المعرفة، فهم في الحقيقة الجشعون الذين لا نهاية لجشعهم ونهمهم. والصورة المرعبة جقاً هي صووة ذلك النهم الذي يزداد رباعاً لا ضعفاً ويدخل في الحلقة المفرغة.

وما دمنا كلنا في هذا الطلب.. وما دامت المعرفة كالهواء الطلق، فلماذا لا نستنشق أنقى منه حسب حاجتنا.. ولا بأس بالمزيد من العافية.

وبازدياد القدرة على الاستيعاب تزداد الحاجة الى ترقية الوسائل. وقد ظلت وسيلة المطالعة هي الأولى على مر العصور بين وسائل المعرفة. وما

الدرس والتحصيل إلا الشكل المصطلح على عملية المطالعة.

فالواقع ان هـــذه الزاوية الصـغيرة التي أنزوي فيها ، هي ملجأي الفكري الأخير الذي أنوي أن أتحصن فيه.

زاوية صغيرة أريد لها أن تكبر.

ومنفذ صغير أريد أن أنفذ منه الى عقول الذين يعنيهم أمر الفكر في بلادنا ، لكي نستمرىء العلم بعد الخرافة ، والنتاج الأدبي العالي بعـــد التهافت ، ونعد أنفسنا لمرحلة انطلاق البشرية من متخلفات السلاسل الموروثة من عصور الخوف السحيق الذي كان يعانيه انسان آدم في الغابات.

في هـذه الزاوية الصغيرة سأحاول أن أحمـل مشعلاً صغيراً.. وأقف في الانتظـار.

وسألزم جانب الصبر في عملية الاملاء الفكري فلا أقفز الى النتائج ، وإنما أنتظر عملية التخمير.

فالتوليـد الفكري لا يختلف عن أية عملية من العمليات الكيمـاوية.. تفاعل بين العناصر لخلق عنصر جديد ذي شخصية متميزة..

وهنا.. تفاعل بين الأفكار لتوليد أفكار جديدة ذات شخصية متميزة.

ولولا ذلك لوقف ذهن الانسان عنـد الكهف والغابة.. وكان عمر الانسان مجرد رقم يتكرر لأيام تمر.

رحلة وعظ ثقيل.

ستكون رحلة طويلة لا مفروضة..

وسيكون الناتج اضافة الى الموجود ، لا اجترار السابق في سبيل اللاحق.

واذا خلا المسير من قائد ، فذلك لأن الطريق مجزء ، وفيه استراحات.

وقد رضيت بهـذه السياحة الفكرية وحدي الآن ، وقد يكون لي رفاق

طريق كثيرون لا آنس بهم ، ولا يأنسون بي . . . وقد يكون لي غيرهم يكون لهم رأي آخر .

أما المسيرة الطويلة فيجب أن تتم . والسامع مطلوب لكي يشترك اذا شاء . بل هي سياحة جنبته كلفة المسير لكي يجني ثمر الوصول الى الغاية . . ولذلك فهمسة منه هنا أو هناك ستضيء الطريق .

ستكون هذه السياحات الفكرية بأخف الوسائل مؤونة ، لأن عنصر التسابق معدوم بين الطرفين .

ستكون رحلة أنس قبل أن تكون في مواجهة السامع مخاطرة . .

مخاطرة على الطرفين ، لأن المواجهة لن تكون عرضية ، ولن تكون نهائية .

ولأنها من قبيل ما يسميه الغربيون (Show-down) وهو كشف أوراق اللعب ، في المباشرة ، فستكون فاصلة النتائج ، ومن هنا خطورتها منذ البداية .

ومع ذلك فمن الضروري أن تكون هذه المواجهة ، لأن المطلوب رفقة طريق شاق طويل قد يؤول قطعه الى المزيد من العرق المتصبب والأقدام الكليلة .

الأفكار الانسانية تركة يراد لها التقييم والاعتبار ، والاشتراك فيها قد يؤول الى المنازعات ، تماماً كما هي الحال في اقتسام التركات المادية بين الورثة المستحقين .

كل واحد يرى الحق لنفسه ، ويتمناه ويتوسل للوصول اليه بوسائله التي يراها ممكنة وشرعية .

واذا امتزج الحق بالرغبة ، وساعد في ذلك عامل المصلحة (سواء أكانت آنية موقوته ام ذات علاقة بالمستقبل) لأن الانسان عادة يحب ما يتمناه ،

ويتمنى ما يحبه ، فخطورة التمييز تصبح شاقة جداً بل تقرب من الاستحالة ، ومع ذلك فهناك الآلاف ومئات الألوف من الناس الذين اوكلوا انفسهم للعمل في هذا التمييز . ورضوا له الخطوط والمخططات . ومن نتاج تفكيرهم نغترف كلنا .

من هؤلاء زاد ثراء الفكر الانساني وسوف يزيد . وإليهم يعود الفضل في أن الركب سار في الطريق الصحيح . وسوف يظل سائراً في ذلك الطريق .

وقد خلقت علوم وفنون جمة . وسوف يخلق سواها ، ولكن الركب سيظل يسير ، وستظل الحاجة نفسها الى المزيد ، لأن نهاية لمثل هذه المسيرة لا يمكن أن تكون ، ففي تلك النهاية نهاية العالم .

إنها رحلة لمجرد الرحلة . تماماً كما يفعل الفارغون المتبطلون ، وكما يفعل من يريد أن يستعيد صحته في قضاء عطلة بلا هدف .

طريق طويل لمجرد الطريق .

ونظرة الى الجانبين لمجرد النظر .

وإلا فان الرحلة تفقد معناها ، وينقلب المسير الى جهد يؤدي الى الكلال .

وتصبح اللذة وظيفة موقوته ، يحسب لها ما يحسب في عالم الوظائف من جزاء ، يدعو الى الجشع وحب المزيد .

فلن يقنعني من الواقع أن تتم هذه السياحات الفكرية مروراً سادراً ، بل أريد لها أن تتفاعل مع ذهن السامع فتبعث فيه الرغبة في الاشتراك في المتعة .

وفي المسؤولية أيضاً !

والكلام في هذا المزيج سيأتي دوره . لأن مسؤولية بلا متعة كالواجب بلا جزاء .

والواجب وحده يثقل الكاهل ، والحق المجرد ينتهي الى العبث والفراغ .

وخير ما يمكن أن يتمناه المرء أن يكون هذا المزيج مستوفياً للمقاييس المطلوبة ، فسيصبح كالجرعة الشافية من الدواء أحسن الصيدلي صنعه من جهة ، واحسنت الطبيعة توافق عناصره من الجهة الأخرى .

وزارة الثقافة والارشاد
مديرية الثقافة العامة

صدرت عن مديرية الثقافة العامة في وزارة الثقافة والارشاد المطبوعات التالية :

	الثمن فلس دينار
اولا ـ سلسلة كتب التراث	
١ ـ الدر النقي في علم الموسيقي : للقادري الرفاعي الموصلي وتحقيق الشيخ جلال الحنفي	٥٠ ـ
٢ ـ ديوان عدي بن زيد العبادي : تحقيق وجمع السيد محمد عبدالجبار المعيبد	٣٠٠ ـ
٣ ـ مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء لياسين بن خيرالله العمري ـ تحقيق السيد رجاء السامرائي	٣٠٠ ـ
٤ ـ اصحاب بدر : منظومة الشيخ حسين الغلامي تحقيق وشرح الاستاذ محمد رؤوف الغلامي	٣٥٠ ـ
٥ ـ ديوان ليلى الاخيلية : عني بجمعه وتحقيقه خليل وجليل العطية ٠	٢٠٠ ـ
٦ ـ الدر المنتثر في أعيان القرن الثاني عشر والثالث عشر للحاج علي علاءالدين الالوسي ، وتحقيق الاستاذين جمال الدين الالوسي وعبدالله الجبوري	٣٥٠ ـ
٧ ـ الجمان في تشبيهات القرآن : لابن ناقيا البغدادي٠ وتحقيق الدكتور احمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثى (تحت الطبع) ٠	
٨ ـ خصائص العشرة الكرام : للزمخشري : تحقيق الدكتورة بهيجة الحسني ٠ (تحت الطبع) ٠	
ثانيا ـ سلسلة الكتب المترجمة	
١ ـ الاصطلاحات الموسيقية : تأليف أ٠ كاظم نقله الى العربية عن التركية : ابراهيم الداقوقي	١٠٠ ـ

	الثمن فلس دينار
ملحق ـ١ـ المستدرك على الاصطلاحات الموسيقية : للمؤلف نفسه وتعريب ابراهيم الداقوقي	١٠٠ ـ
٢ ـ رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر نقله الى العربية عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين قدم له وعلق عليه السيد سالم الآلوسي	٢٠٠ ـ
٣ ـ العراق قبل مائة عام : للمسيو بيير دى فوصيل ٠ نقله عن الفرنسية الدكتور أكرم فاضل (تحت الطبع) ٠	

ثالثا ـ سلسلة الكتب الحديثة

١ ـ رائد الموسيقى العربية : تأليف عبدالحميد العلوچي	٢٠٠ ـ
٢ ـ معجم الموسيقى العربية : تأليف الدكتور حسين على محفوظ	٢٠٠ ـ
٣ ـ جولة في علوم الموسيقى العربية: تأليف الاستاذ ميخائيل خليل الله ويردي	٥٠ ـ
٤ ـ الحرية : تأليف الاستاذ ابراهيم الخال	١٠٠ ـ
٥ ـ موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي	٥٠ ـ
٦ ـ موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي	٥٠ ـ
٧ ـ النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأميم في القانون العراقي : تأليف الاستاذ حامد مصطفى	٣٥٠ ـ
٨ ـ علي محمود طه ٠٠٠ الشاعر والانسان : تأليف المرحوم الاستاذ أنور المعداوي	٢٠٠ ـ
٩ ـ مؤلفات ابن الجوزي : تأليف عبدالحميد العلوچي	٢٥٠ ـ
١٠ـ أبو تمام الطائي : تأليف الاستاذ خضر الطائي	١٥٠ ـ
١١ـ من شعرائنا المنسيين : تأليف الاستاذ عبدالله الجبوري	٢٠٠ ـ
١٢ـ محمد كرد علي : تأليف الاستاذ جمال الدين الآلوسي	٣٠٠ ـ
١٣ـ أدباء المؤتمر : للاستاذ عبدالرزاق الهلالي	٢٠٠ ـ
١٤ـ بدر شاكر السياب : للاستاذ عبدالجبار داود البصري	١٥٠ ـ
١٥ـ الواقعية في الادب : تأليف الاستاذ عباس خضر	٢٠٠ ـ
١٦ـ شعراء الواحدة : للاستاذ نعمان ماهر الكنعاني	١٥٠ ـ
١٧ـ لقاء عند بوابة مندلبوم : للاستاذ احمد فوزي	٢٠٠ ـ
١٨ـ خسرناها معركة ٠٠ فلنربحها حربا : للاستاذ فيصل حسون	٢٠٠ ـ
١٩ـ عطر وحبر : تأليف عبدالحميد العلوجي	٣٥٠ ـ
٢٠ـ الدبلوماسية في النظرية والتطبيق : تأليف الدكتور فاضل زكي محمد ٠	٣٠٠ ـ

	الثمن فلس دينار
٢١ـ من عيون الشعر مختارات الاستاذ محمد ناجي القشطيني	٤٥٠ ـ
٢٢ـ مع الكتب وعليها ـ للاستاذ عبدالوهاب الامين	٢٠٠ ـ

رابعا ـ سلسلة الثقافة العامة

١ ـ المواسم الادبية عند العرب : تأليف عبدالحميد العلوجي	١٠٠ ـ
٢ ـ الادباء العراقيون المعاصرون وانتاجهم : تأليف السيد سعدون الريس	٥٠ ـ
٣ ـ تطور الحركة الوطنية التونسية منذ الحماية حتى الاستقلال : تأليف الدكتور لؤي بحري (نفدت نسخه)	٥٠ ـ
٤ ـ العلم للجميع : اعداد كامل الدباغ	٥٠ ـ
٥ ـ الدين والحياة ـ تأليف الشيخ محمود البرشومي	١٥٠ ـ

خامسا ـ سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث

١ ـ اللهب المقفى ـ شعر حافظ جميل	٣٥٠ ـ
٢ ـ غفران ـ شعر محمد جميل شلش	٢٥٠ ـ
٣ ـ صوت من الحياة : شعر الاستاذ حازم سعيد (يصدر قريبا)	

سادسا ـ سلسلة القصة والمسرحية

١ ـ الظامئون : للاستاذ عبدالرزاق المطلبي	٢٥٠ ـ
٢ ـ عمان لن تموت : للاستاذ عبدالوهاب النعيمي	١٠٠ ـ
٣ ـ من مناهل الحياة : للاستاذ الياس قنصل	١٠٠ ـ
٤ ـ رماد الليل : للاستاذ عامر رشيد السامرائي	١٥٠ ـ
٥ ـ الهارب : للاستاذ شاكر جابر	١٠٠ ـ
٦ ـ خارج من الجحيم ـ للاستاذ صادق راجي (تحت الطبع)	

الفهرست

	الصفحة
المقدمة	١
مع الكتب .. وعليها	٧
تحدي الأساليب	١١
ما هي مهمة الناقد ؟	١٦
خواطر حزينة في واقعنا الأدبي	٢٠
خواطر حزينة في مستقبلنا الأدبي	٢٦
شرق وغرب	٣٠
ثورة على الفكر العربي المعاصر	٣٤
عقابيل المأساة	٤٣
الانسان في المرآة	٤٧
مرحباً بكوليت	٥١
المغنون البغداديون والمقام العراقي	٥٣
عصر العظمة الفردية	٥٧
الخائبون	٦١
الثقافة الأخرى ـــ ثقافة الغاضبين	٦٦
هذا العبقري الخالد	٧٠
بعد العقـاد	٧٢
بعد الزهاوي	٧٧

الصفحة

شوقي وشعره الوجداني ٨١
كافكا .. أديب الخوف ٨٥
ملينا .. عشيقة كافكا ٩٠
الشاعر .. ت . إليوت ٩٤
ذكرياتي عن محمود أحمد ٩٩
رماد الليل ١٠٤
النفس .. انفعالاتها وأمراضها وعلاجها ١٠٩

خواطر وسياحات فكرية

افكار متناثرة ١١٥
تحية ١١٩
الى أين ؟ ١٢١
خواطر متناثرة ١٢٥
محنة الأديب في عصر الذرة ١٢٩
مع الفلسفة ١٣٣
الحنين الى المجهول ١٣٧
تقييم المدنية ١٤٢
مع الفن ١٤٧
لماذا الكتاب ؟ ١٥٣
هل نحن في عصر نهضة فكرية ؟ ١٥٩

ثمن النسخة ٢٠٠ فلس

دار الجمهورية ـ بغداد
١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م

COLUMBIA UNIVERSITY
0026812452

956
Ir27
22

SEP 23 1974